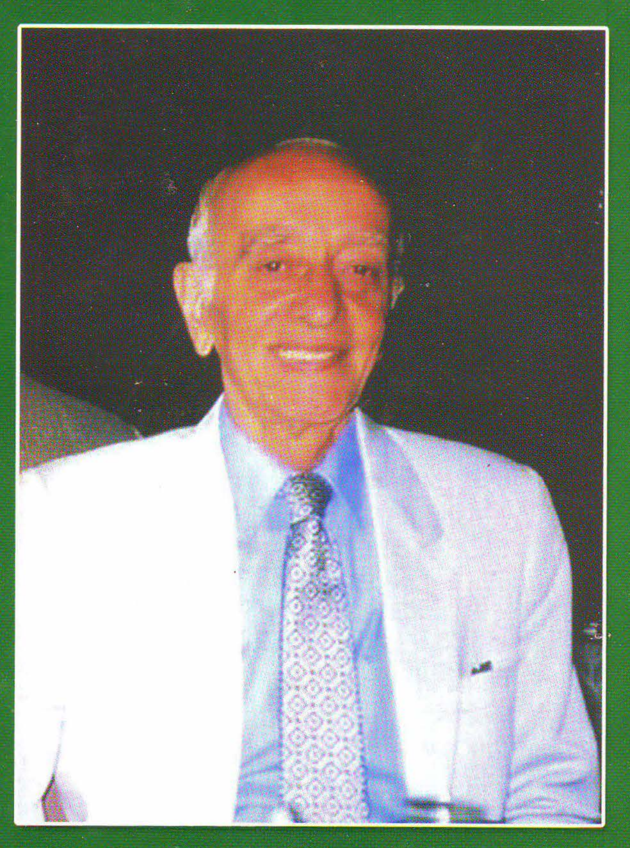
قِصةُ حياتي



د. مهدي مكيّة



د. مهدي ملكية:

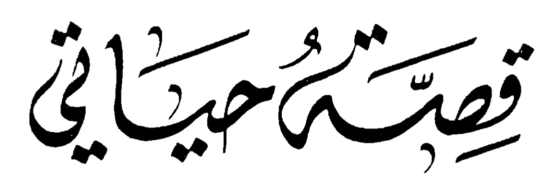
خدم لمدة نصف قرن بصفة اختصاصي وباحث واستشاري في مجال طب ورعاية الأطفال في العراق. كما انه أول طبيب ينال شهادة البورد الاميركي في العراق.

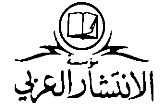
رغم ان اهتمامه كان منصباً على رفع مستواه العلمي والمهني ولكنه بقي حريصاً على رصد الحركة السياسية المتعثرة والجامحة في العراق والتي انحرفت بعيداً عن المسار الديموقراطي وجلبت المآسي والدمار لشعبه المسكين.

د. مهدي مكيّة

قِصّة حياتي

د. مهدي ملكية





ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-183-3

الطبعة الأولى 2011

فهرس المحتويات

ذكريات في الثلاثينيات

ذكريات في الأربعينيات
تبدأ منذ دخولي مرحلة الدراسة المتوسطة

التخرج من الكلية الطبية
والتدرج في المهنة الطبية

إهداء

إلى كل العراقيين الأخيار
الذين همّهم بناء عراق ديمقراطي
حُرّ ومتآخٍ.

المقدمة

قد يعطي سرد قصة حياتي القارئ الكريم صورة مُصغرة ومبسطة عن كيفية تفاعل وتطور العوامل الثقافية والاقتصادية والسياسية في المجتمع العراقي في بُعديه الزمني والمكاني.

لن أكتفي بوصف الحوادث والمشاهد فحسب، بل سأبذل جُهدًا أحيانًا في تفسير مدلولاتها الحضارية والاجتماعية من خلال الاستعانة بخبرتي الحالية التي امتدت لأكثر من سبعين عامًا. بعض الحوادث العائلية التي أرى لزامًا عليّ ذكرها قد تكون مملة لدى بعضهم مثيرة لبعضهم الآخر. حاولت أحيانًا أن أقحم عنصر الطرافة في بعض الحوادث الجدية لكسر الجمود الذي قد يسبب مللًا للقارئ. كما سيُلاحظ أيضًا توسيع عدسة الرؤيا عند تفصيل ذكر بعض المناسبات والمفارقات الغريبة والحوادث التي لها علاقة بتطورات المسيرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وخصوصًا الدينية منها والطائفية التي لها نكهة خاصة ومثيرة للجدل في الوقت الحاضر.

في الواقع، إني مهتم وقلق حيال التفسخ والانحلال

اللذين لمستهما وخصوصًا في العقود الأربعة السابقة في مجال الروابط الاجتماعية والتراثية القديمة التي كانت تحافظ على وحدة ونسيج ما تبقى من حضارة وادي الرافدين العريقة والعزيزة علينا. من الطبيعي أن تتفاعل شعوب العالم وتتأثر سلبًا وإيجابًا بالتطورات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي تجتاح العالم وتجعل منه قرية كبيرة بلا حدود. إن بعض الشعوب النامية تجتهد في كيفية امتصاص إيجابيات هذا التطور ونبذ سلبياته في سبيل الحفاظ على هويتها. عسى أن نكون في مصاف هذه المجموعة التقدمية.

لقد قررت المجازفة في كتابة ما أتذكر من مشاهد وحوادث ترسبت في ذاكرتي في فترة لا تقل عن سبعة عقود ولو أني لم أُمارس الكتابة والتأليف من قبل!! ولكن أقنعت نفسي بأن القارئ سيعذرني ويتغاضى عن بعض الهفوات عندما يشعر بأن هدفي من روايتها هو تقديم جهد معرفي وفكري متواضع لمجتمعي الذي علّمني وأكرمني.

وقبل أن أختم هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أقدم الشكر الجزيل إلى الصديق الشاعر محمد زينو شومان الذي راجع هذا الكتاب لغويًا وأبدى بعض الاقتراحات المهمة في صياغته بصورته النهائية.

ذكريات
في الثلاثينيات

الولادة ـ المحلّة ـ العشيرة

إني أنتمي إلى عائلة بغدادية الجذور، متوسطة الدخل والمكانة الاجتماعية، جُلَّ أفرادها يمارسون صناعة النسيج اليدوي منذ عدة قرون وفي مطلع القرن العشرين بدأوا مهنة متطورة وأكثر ربحًا من سابقتها وهي بيع هذه الأنسجة كملابس في السوق المحلية بالمفرد والجملة والشخص الذي يبيعها يُسمّى «بزّاز» وتشمل البضائع المتخصصين ببيعها الملابس النسائية ولا سيما الفوط الحريرية البيضاء والسوداء التي كانت تغطي الرأس والرقبة والصدر والجراغد (وهذه تستعمل كغطاء للرأس تستخدمه عادة النسوة الريفيات) وكذلك العباءات النسائية المصنوعة خارج القطر من الحرير الطبيعي أو الصناعي.

كان والدي عبد الحسن مجيد مكّية «بزّازًا» ناجحًا لمثابرته على العمل، وكان يمارس المهنة نفسها والده الحاج مجيد. وقد انحسرت مهنة بيع هذه المنتوجات في بغداد في محليهما في سوق البزّازين. لاحظتُ أن اليهودَ كانوا آنذاك يسيطرون على حوالى 80% من تجارة الأقمشة في السوق وما تبقى يقوم به المسلمون وكانت غالبيتهم من الطائفة الشيعية. لكن، على الرغم من سيطرة اليهود على

حركة السوق التجارية في بغداد بصورة عامة، إلاّ أنهم كانوا غير ميالين لتصنيع أو بيع هذه المنتوجات المصنوعة محليًا. وربما كان ذلك بسبب تقلص تسويقها مع الزمن حيث بدأت النسوة في بغداد ارتداء الملابس الغربية والمصنوعة عادة خارج القطر.

المحل الذي ولدتُ فيه يُسمّى «سوق العجيمي» وهو في جانب الكرخ ويشمل أطرافًا كثيرة، وكل طرف عبارة عن زقاق غير مبلط لا يزيد طوله على 200 ـ 300 مترٍ ومعدل عرضه 4 ـ 5 أمتار. من جملة هذه الأطراف التابعة له سوق الدجاج، درب الفوق، طرف السادة وباب الطاق. تسكن هذه المنطقة طبقة متوسطة على العموم وبعضهم فقير الحال، كانوا متنوعي الأعراق والطوائف. ومن جملة العوائل التي أتذكرها بيت البغدادي، بيت العطار، بيت مصطفى الخليل، بيت محمود السعدي، بيت العاني (ومنهم صديقي محمد جابر محسن)، بيت حلاوي (وهم سادة يعتمرون العمائم الخضراء).

كانت ولادتي في العام 1927، علمًا أني لا أملك الدليل على هذا التاريخ لأن الولادة عادة كانت تقوم بها قابلات لا يحملن إجازة رسمية وأغلبهن غير مؤهلات. وهذا الأمر سبب لي عدة مشاكل عند سفري إلى الولايات المتحدة في الخمسينيات . ثقافة والدي كانت محدودة مع أنه كان يمارسُ القراءة والكتابة بصورة جيدة. والمثقف في

ذلك الوقت كان يعني كل شخص يمارس القراءة والكتابة إما عن طريق المدارس وإما الملالي. والدتي محاسن من آل (التحماسي) من جانب الرصافة، كانت لا تجيد القراءة أو الكتابة. أما أخواتي الأربع، واحدة منهن توفيت في السنة الأولى من عمرها واثنتان منهن أكبرُ مني سنًا وهما فخرية التي أكملت الدراسة الابتدائية، ونجية التي أكملت الدراسة المتوسطة، وأما الأخت الصغرى مليحة فقد أكملت تحصيلها الجامعي في كلية الملكة عالية للبنات.

نسبة الوفيات عند الأطفال كانت مرتفعة جدًا وقد وصلت إلى 30 ـ 40% في الثلاثينيات عند الأطفال الذين لم تكن تتجاوز أعمارهم الخمس سنوات. ولكن هذه النسبة أخذت تهبط سريعًا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918. إن كثرة الوفيات في العراق وخصوصًا عند الأطفال كانت بسبب انخفاض المستوى الاقتصادي والثقافي للفرد العراقي مما أدى إلى انخفاض ملحوظ في تعداد نفوس العراق الذي وصل إلى الحضيض في مطلع الثلاثينيات إذ بلغ حوالى ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة فقط.

بيت مكّية

إن «آل مكّية» هم عائلة متنامية بغدادية الجذور حيث ليس هناك الكثير من أفرادها يسكن خارج هذه المدينة لا داخل العراق ولا خارجه. يسكن حوالى نصف أفراد العائلة جانب الرصافة والنصف الآخر جانب الكرخ.

يتساءل بعضهم من هي «مكية»؟ يُقال أنها امرأة عاشت في الغالب في منتصف القرن التاسع عشر في بغداد وكانت متدينة وغنية وتمارس أيضًا تعليم الأطفال في المنطقة التي عاشت فيها القراءة والكتابة وتجويد القرآن الكريم. أتذكر أني في المنطقة الشعبية في بغداد التي كنت أعيشُ فيها في الثلاثينيات كثيرًا ما يطلق الناس اسم المرأة بدل الرجل في الدلالة على موقع ما كدار أو محل! فيقولون قرب بيت فطومة أو بيت ماهيه وبيت حجيه سعده وهكذا!

العوائل في بغداد، كما هو الحال في المدن الرئيسية في العراق، هي امتداد للعشائرية والقبلية السائدة في المناطق الريفية والبدوية. والعوائل البغدادية الأصيلة التي سكنت بغداد منذ قرون طويلة قد يصعب استقصاء جذورها القبلية بدقة كعائلة مكية، أبو التُّمَّن، التحماسي، علاوي،

كبة وغيرها. بينما العوائل التي نزحت إلى بغداد من الريف أو البادية أو المدن الصغيرة الأخرى فتستعمل أسماء جذورها القبلية كالبدري والشمّري والبيّاتي وبعضهم يستعمل اسم المدينة التي نزح منها كالسامرائي والتكريتي والحلّي وهكذا! كانت العشيرة في المدينة تلتزم إلى حدٍ ما بالقيم نفسها التي تلتزمها القبيلة كالاعتزاز بنسب العشيرة والعائلة والتكتل في السرّاء والضرّاء ومساعدة الغني منهم للفقير (أحيانًا). ولكن كنت ألاحظ في الوقت نفسه تكتلًا طبقيًا لدى العشائر التي تسكن المدن ويعتمد هذا التكتل على وجاهة وثقافة وإمكانية الأفراد المادية. فالفرد الذي ينتمي إلى الكتلة الأضعف أو العشيرة الأقل حظًا يجدُ صعوبة مثلًا في اختيار زوجة منتمية إلى كتلة أعلى مكانة من تلك التي ينتمي إليها! (يعني ماكو اشتراكية في العائلة المتحضّرة لأنها تلتزم بالعرض والطلب والسوق الحرّة يا سيدي!!).

تفاصيل عن عائلتي المصغّرة
(لمن يهمّهم الأمر)

جدي الحاج مجيد عبد العزيز مكّية الذي سبقَ ذكره قد تزوج ثلاث مرات. الزوجة الأولى اسمها «فاطمة» وكان والدي ابنها البكر ونعيمة البنت الوحيدة تزوجت التاجر السيد محمد الحلّي وعاشت في مدينة الحلّة، والأصغر كان العم محمد حسين وكان يُلقب بـ (قنبر). بعد وفاة «فاطمة» تزوج جدي «صديقة» الكرخي ابنة أخت الملا عبود الكرخي الشاعر الشعبي وقد رُزق منها ولدين الأول اسمه ناصر حيث التحق بالجيش (صنف الخيالة) وكان فارسًا بكل معنى الكلمة وحاز على عشرات الكؤوس في الفروسية. وأما الصغير فهو «حميد» وكان موظفًا في وزارة التجارة. أما البنت فكان اسمها «نسيمة» وقد تزوجها التاجر المعروف محمد كاظم مكية.

بعد وفاة أم ناصر بداء التدرن، تزوج الثالثة والأخيرة وكان اسمها «حسيبة» من آل علاوي وقد رُزق منها ولدين وابنتين. أكبر الأولاد كان اسمه عبد الإله الذي توفي باكرًا

وهو لا يتجاوز الأربعين من العمر. والبنت الكبرى وهي سلمى تزوجت عبد الرزاق الخياط وهو صاحب أعمال، والصغرى كانت خولة وتزوجت مجيد آل حمود ويمتهن التجارة بنجاح باهر ويعيش في لندن وهو أخ لصديقي ورفيقي في الحزب الوطني الديموقراطي السيد هديب الحاج حمود. أما الولد الأصغر فهو عوني وكان مهندسًا في الخطوط الجوية العراقية، والآن يشتغل كمهندس مدني ورجل أعمال في الأردن، وهو مشهور ومشكور لأنه ظلَّ ملتزمًا ومستجيبًا لحاجات وطلبات أفراد العائلة كبارًا وصغارًا.

أما أخواتي فالكبرى اسمها فخرية وقد تزوجت ابن عمها الدكتور عبد العزيز مكية الذي تخرج من الدورة الرابعة في كلية الطب الملكية في بغداد ومن زُملاء صفه الدكتور «نجيب اليعقوبي» والدكتور «كمال السامرائي». كان اختصاصه يشمل الأمراض الجلدية والزهرية وكنت أعتبره أخًا كبيرًا لي وصديقًا دائمًا طول حياته رغم الفارق العمري بيننا. وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد وابنتين، الولد الأكبر هو نزار الذي أكمل شهادة الدكتوراه في الهندسة في بريطانيا، وبعد ذلك اشتغل في مكتب عمه في البحرين قبل الانتقال إلى دبي حيث أقام هناك وهو يدير الآن مكتبه الهندسي الخاص به بنجاح. أما الولد الأوسط فقد تخرج في كلية التجارة وأصبح موظفًا في وزارة التجارة فمديرًا لأحد أقسامها حتى اغتياله في سنة 2006 قرب داره في شارع

14 رمضان في أثناء فترة القتل على الهوية من قبل شراذم الإرهابيين. أما الأصغر فهو غسان الذي حاز شهادة الدكتوراه في الهندسة في المملكة المتحدة وأقام في كندا خمس سنوات قبل أن يغادرها إلى دولة قطر حيث لا يزال يعمل بصفة مستشار في إحدى الوزارات. أما «أمل» البنت الكبرى والبكر فتزوجت الصيدلي الكيميائي «فاضل تويج» الذي كان صاحب مذخر أدوية كبير في بغداد، ومن ثم افتتح مصنعًا كبيرًا لصنع الأدوية بعد أن أغلقت الدولة مذاخر الأدوية في العراق. وقد أصبح فاضل أحد أصدقائي الدائمين. أما البنت الصغرى «رحاب» فقد تزوجت «مدحت الحيالي» وكان مدير عام في وزارة التجارة وانتقل بعدها كممثل تجاري للعراق في الجامعة العربية قبل أن يتقاعد ولا يزال مقيمًا في القاهرة حتى الآن. أما مليحة وهي الأخت الصغرى فاقترنت بالدكتور «صادق الهلالي» أستاذ علم الفيزيولوجي في جامعة بغداد ومن ثم ترك العراق واشتغل في جامعة الأردن كأستاذ في الفرع نفسه قبل أن يلتحق بمنظمة الصحة العالمية بمنصب استشاري وقد كلفته المنظمة تأليف أول معجم باللغة العربية في موضوع «علم فسلجة الجهاز العصبي للإنسان». أنجبت منه ثلاثة أولاد أكبرهم سنًا هو «جعفر» الذي أصبح أستاذًا في كلية الطب في بغداد قبل أن يغادرها بعد سقوط النظام الى الإمارات العربية حيث يشتغل هناك بصفة طبيب استشاري في الأمراض الباطنية. وأما الدكتور «علي» وهو الأوسط فقد

التحق بجامعات بريطانية وتخصص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة ويمارس مهنته كطبيب استشاري في مدينة مانشستر البريطانية. أما الأصغر فهو «محمد» الذي حصل على شهادة الماستر في موضوع إدارة الأعمال من بريطانيا ويشتغل الآن كخبير في إحدى الشركات البريطانية.

أما الأخت الوسطى نجية فقد تزوجت ابن عمها «عبد العزيز علوان» الذي تخرج في كلية الحقوق وأصبح مدير ناحية ومن ثم ترفع إلى قائم مقام واشتغل في قضاء المسيّب ومن ثم سامراء قبل أن يتقاعد. كان «عادل» الولد البكر له وقد حاز شهادة الدكتوراه في المملكة المتحدة في موضوع علم المايكرو بايولوجي حيث أصبح أستاذًا في الكلية الطبية في بغداد قبل أن يغادر العراق ليعمل في أحد مستشفيات قطر. أما البنت الوحيدة «سوسن» فقد اقترنت بالمهندس «عدنان الصافي» الذي أصبح مدير عام الحاسبة الإلكترونية في وزارة النفط قبل أن يتقاعد. أما الولد الأصغر فهو «سرمد» الذي تخرج طبيبًا ولا يزال يمارس الطب مع زوجته الطبيبة «ميساء» في أحد مستشفيات بغداد.

أما عمي الكبير «محمد حسين» الذي أشرف على تربيتي وإرشادي فكان يسكن معنا في بيتنا القديم في سوق العجيمي قبل أن ينتقل إلى بيته الجديد في الصالحية ويتزوج ابنة عمه «نعيمة» أخت التاجر محمد كاظم مكية حيث رزقت منه ولدًا اسمه «طارق» الذي تخرج في كلية التجارة

وامتهن التجارة الحرة والصناعة النسيجية بنجاح باهر. أما أخواته فالكبرى منهن واسمها «سهام» فتزوجت ابن خالتها «شاكر الگنبر» من مدينة كربلاء وكان يمارس التجارة والصناعة. والبنت الأخرى «سميرة» فتزوجت «وداد عجام» الذي كان موظفًا في وزارة الخارجية وتدرج إلى سفير ومدير عام فيها حتى تقاعده. أما «ساهرة» فقد تزوجت «عدنان الكيلاني» وكان موظفًا في وزارة الخارجية لكنه استقال من وظيفته لأنه كان من القوميين الناصريين الملتزمين. وبعدها غادر العراق إلى مصر حيث أقام هناك مع عائلته فترة طويلة قبل أن يرجع إلى العراق ويتولى منصب مدير عام في وزارة التجارة. لم يدم بقاؤه طويلًا لأنه استقال من هذا المنصب لرفضه تطبيق الأمر الحكومي الذي صدر في الثمانينيات والذي كان يقضي أن على الوزراء والمدراء العامين أن يلتزموا بقانون الرشاقة البدنية الذي سنّه صدام آنذاك. وقد أخبرني في جلسة خاصة مداعبًا قائلًا: منصب المدير العام بالنسبة إلي لا يساوي العشرة كيلوغرامات التي يجب أن أفقدها من جسمي والمائة كيلوغرام التي سأفقدها من كرامتي!!

أما الصغرى وهي «إلهام» فتزوجت «علي الشمخاني» من مدينة البصرة وكان شابًا وصاحب أعمال كبيرة في الوقت نفسه وقد توفي مبكرًا بالسكتة القلبية في الأردن بعد سقوط النظام.

أما بناتي، فالكبرى «سلمى» أرسلتها إلى المملكة المتحدة في أواخر السبعينيات حيث أنهت سنة في تعلم اللغة الإنكليزية قبل أن تلتحق بجامعة فرد - ركتن الكندية وحصلت على الشهادة الجامعية منها في موضوع السكرتارية وإدارة الأعمال، وهي الآن موظفة ورئيسة قسم في دائرة الحسابات التابعة لوزارة الدفاع الكندية. أما البنت الصغرى «ياسمين» فإنها أكملت دراستها الجامعية في موضوع الحاسوب في سنة 1990 بدرجة امتياز. وتزوجت المهندس «محسن» ابن الدكتور «نايف الحسوني» الطبيب الأخصائي في أمراض العيون، كما أن والدته «نجوى النقاش» كانت أستاذة الولادة والأمراض النسائية في جامعة المستنصرية. وقد رزقت منه عزيزتي «ميس» البنت البكر وهي الآن معنا في كندا وبعد سنة تتأهل لدخول إحدى الجامعات الكندية. أما حبيبي «علي» فهو الابن الوحيد لها وهو شاطر وهاوٍ للرياضة وخصوصًا كرة القدم وبعد سنة ينهي الدراسة الابتدائية.

ذكريات متفرقة عن بغداد في الثلاثينيات

شوارع بغداد الرئيسية عريضة نسبيًا تراوح بين (8 - 10 أمتار) وفي الغالب مزفّتة. وكان هناك شارع واحد منها يخترق منطقتنا في جانب الكرخ يُسمّى «شارع العلاوي»، الذي يمتد إلى منطقة الجعيفر وسُمي بهذا الاسم لكثرة وجود العلاوي التي تبيع أنواع الحبوب بالجملة.

فصل الشتاء غير مرغوب فيه عادة في العراق والبلدان النامية الأخرى وخاصة الفقيرة منها، لأن الحاجة إلى الملابس الشتوية الضرورية كانت كلفتها مرتفعة بالنسبة إلى دخل أغلبية الناس. كما أن التدفئة الضرورية في هذا الفصل من السنة إما معدومة، وإما بدائية كالمناقل النحاسية أو الحديدية المتنقلة التي يُستعمل الفحم الخشبي كوقود لها، وهي في الواقع غير صحية عند استعمالها في الأماكن المغلقة، لأن نسبة ثاني أوكسيد الكربون تكون مرتفعة وكثيرًا ما تحدث إصابات تسمم بغاز أول أوكسيد الكربون المتصاعد عند احتراقه.

إضاءة الطرق والمحال تكون بواسطة الفوانيس النفطية

الكبيرة المثبتة على جدران الشوارع، والمسؤول عن حمايتها هو دائرة البلدية في المنطقة التي بدورها أيضًا تشرف على الحراسة الليلية، وكان ثمة حارس لكل طرف أو منطقة يسمى (البسوان) ويحمل عادة بندقية قديمة، علمًا أن السرقات كانت قليلة جدًا وقد تكون نادرة!!

إسالة ماء بغداد نشرت خدماتها بسرعة في الثلاثينيات، بحيث أن معظم الطبقة الوسطى في تلك الفترة كانت تستعمل الماء الصافي في بيوتها بدل سحب الماء من الآبار القديمة الموجودة في بعض بيوتها. هذه الطبقة من الناس بدأت تستعمل القوة الكهربائية في دورها، وأتذكر في منتصف الثلاثينيات كان عندنا راديو نستمع بواسطته إلى مونولوجات عزيز علي الشعبية، ويطرب الناس لسماع أغاني «سليمة باشا» و«منيرة الهوزوز».

كانت وسائل التبريد المتوافرة في الصيف هي اللجوء إلى السراديب في النهار، والنوم على سطوح المنازل عند هبوط الظلام.

والتنقل في بغداد يكون بواسطة الأقدام البشرية القوية (المشي). وهذه الظاهرة كانت نافعة وصحية لأغلب الناس لأنها تستهلك معظم الشحوم الفائضة في أجسامهم، ولا يبقى هناك من فائض ليترسب في شرايينهم الدموية فتقلل من كمية الدم المتدفق الضروري لقلوبهم وأدمغتهم. فتجد أن الإصابة بالجلطة الدماغية والقلبية قليلة وغير مألوفة في ذلك

الوقت. أما المحال البعيدة نسبيًا فيسعى المواطنون إليها بواسطة العربات التي تجرها الخيول وتسمى «الربل» بدل التاكسي الحالي الملوث للبيئة!!

أما التوجه إلى منطقة «الكاظمية» البعيدة نسبيًا فيكون باستعمال عربات كبيرة خشبية الصنع ذات طابقين، تجرها الجياد على سكة حديدية وتسمى هذه (الگاريات) وهي موجودة في جانب الكرخ وتستغرق الرحلة حوالى نصف ساعة. أما التنقل بين جانب الكرخ (الصوب الصغير) وجانب الرصافة (الصوب الكبير)، فكان عن طريق جسرين خشبيين يستندان إلى طوافات كبيرة حديدية متوالية تسمى (الدوب مفرد دوبة). كان أحد هذين الجسرين يبعد عشرات الأمتار فقط عن المقهى البيروتي الشهير في جانب الكرخ. والجسر الثاني ويسمى جسر «مود» قبل أن يُطلق عليه اسم «جسر الملك فيصل»، وكان يربط منطقة الصالحية بشارع الرشيد قرب ساحة «حافظ القاضي». هذان الجسران ينقطعان يوميًا على الأقل مرة واحدة في الصباح لفسح المجال للسفن والبواخر بالمرور في كلا الاتجاهين من النهر.

القطاع الطبي في جانب الكرخ

كان يتكون بصورة رئيسية من مستشفى عام يسمى «مستشفى الكرخ»، ويقع على شاطئ نهر دجلة قرب منطقة الجعيفر ومقابل القشلة من الجانب الآخر من النهر. كما يوجد في هذا الجانب من بغداد مستشفى حكومي ثانٍ هو «مستشفى العزل» الكائن على أطراف المدينة والقريب من منطقة «الشيخ معروف». وهذا المستشفى مختص في علاج الأمراض السارية والمعدية وخصوصًا الخطرة منها، ويستقبل المرضى من جميع أنحاء بغداد. أما القطاع الطبي الخاص في جانب الكرخ، فيمثله طبيب واحد اسمه الدكتور «توفيق محمود»، عيادته في علاوي الحلة وقد عالجني الطبيب المذكور عندما أُصبتُ بحمى، وكانت أجرته ربع دينار (وكان هذا المبلغ مرتفعًا جدًا إذ كان سعر الكيلو الواحد من اللحم 30 فلسًا فقط).

دخلت المدرسة وعمري حوالى خمس سنوات، وكان اسم المدرسة (الفلاحات الابتدائية للبنين)، وقد انتقلت إلى بناية (أو دار كبيرة) جديدة وتبدّل اسمها إلى مدرسة الزوراء. كان المدير من عائلة «المدلل» المشهورة. وكان المدرسون يستعملون الشدة مع التلاميذ، وعند مخاطبة أحدهم نسميه

«سيدي» بدل «أستاذ» كما هو مألوف في الوقت الحاضر. كانت مستويات الأساتذة متباينة، مستوى ضعيف يعوضونه بالشدة ومستوى آخر جيد أو مقبول. وهناك قصة ظريفة عن أحد المعلمين الذين كانوا يدرسوننا واسمه (ع.ج.م). كان يقول لنا بصدد المنظومة الشمسية: أولادي لا تتصوروا أن القمر الذي فوق رؤوسنا صغير كما تشاهدونه بالعين المجردة، فهو في الواقع كبير جدًا جدّاً!. فسأله أحد التلاميذ: سيدي كم هي مساحته؟ فحار الأستاذ من هذا السؤال المحرج وفكّر طويلًا وأجاب: إن مساحته يا ابني تزيد على طول المسافة بين مدرستنا و(گنو التتنجي) المجاور للمقهى البيروتي مربع (يقصد تربيع المسافة)!

أما معاقبة التلاميذ في المدارس الابتدائية فكانت بالضرب الشديد بالمسطرة على راحة اليد، وأحيانًا بالعصا الغليظة إذا اقتضى الأمر (وين يوجعك يا ولد!).

كان الدوام على فترتين: 4 ساعات صباحًا وساعتان بعد الظهر مع ساعة للفرصة لتناول الغداء، يذهب خلالها الطالب إلى بيته القريب لعدم وجود حوانيت في المدرسة آنذاك، إذ لم تكن الأمهات يزودن أولادهن بالساندويتشات (اللفّات) ليتناولوها في المدرسة كما يفعلن في الوقت الحاضر. لم يكن الدين والرياضة من الدروس المهمة والدرجات كانت تعطى للتلاميذ بلا حساب. والعطلة الربيعية (وكانت تسمى نصف السنة) فمدّتها أسبوعان، أما

العطلة الصيفية فمدّتها أربعة أشهر، وتعتبر المتنفس الوحيد للطلبة لأن الغالبية الساحقة، وأنا منهم، لم تكن تحب المدرسة لأن أجواءها جافة ووسائل التعليم فيها بدائية، وكانت تُعوض باستعمال القسوة المفرطة والتهديد بالسقوط في الامتحانات.

حادث غرق وطريقة إنقاذ «معجزة»

كان التلاميذ الصغار يقضون العطلة الصيفية باللعب في الطرقات الضيقة القريبة منهم، يلعبون أحيانًا كرة القدم في الأغلب بكرات صغيرة (كرات التنس الحالية) وأحيانًا يلعبون كرة الطائرة بكرة مطاطية كبيرة والشبكة عبارة عن حبل يُشد عبر الزقاق الضيق. تبقى السباحة هي الرياضة المفضّلة لدينا خلال عطلة الصيف الحار. كانت شريعة باب السيف القريبة من المقهى البيروتي هي المكان المفضّل لي للسباحة لأنها لا تبعد عن دارنا أكثر من 700 متر. وبهذه المناسبة سأذكر حادثًا كاد يؤدي إلى فقدان حياتي وأنا في السادسة من العمر لولا صدفة إنقاذ غريبة جدًا وقعت لي (هذه الصدفة أُقدّر أن إمكانية حدوثها وبالشكل الذي وقعت فيه هي واحد في المليون). ذهبت يومًا مع أصدقائي سالم العطار ومحمد جابر محسن وآخرين للسباحة في النهر هذه المرة في شريعة (بيت النواب) ونحن لا نُجيد السباحة وبدون رقيب. تكون سباحتنا عادة في الأماكن الضحلة من ساحل النهر. داعبني صديقي جابر ودفعني قليلًا إلى المنطقة العميقة من النهر، فغمر الماء فمي وأنفي، فرفعت كلتا يدي

إلى الأعلى مستنجدًا قبل أن أختنق وأفارق الحياة، بينما كان أصدقائي الصغار يلهون ويسبحون غير مبالين بالأمر. في أثناء ذلك كانت إحدى قريباتنا عمة والدي «أم رشيد مكّية» في طريقها لزيارة ضريح الإمام الكاظم متوجهةً إلى محطة العربات المخصصة لنقلها والمسماة «الگاريات» وإذا بعربة تحمل «أنجاس سائلة» (الماء الثقيل) تلوث عباءَتها، لذلك توجهت إلى ساحل النهر القريب منها لتغسلها قبل أن تذهب لزيارة الضريح المقدس. وبينما هي تنزل إلى شاطئ النهر المخصص عند «بيت النواب» رأت طفلًا يرفع يديه مستغيثًا وهو يغرق، فصرخت بأعلى صوتها: يا عالم! يا ناس! أنقذوا هذا الطفل الغريق! سمع هذه الاستغاثة أحد سواق الزوارق (البلامة) الذي كان منهمكًا في صبغ قاربه على الشاطئ فقفز إلى الماء وأنقذني. وكم كانت دهشة أم رشيد عندما تعرفت على الطفل وصاحت بأعلى صوتها: هذا ابننا مهدي! توجهت وهي تحملني على صدرها إلى بيتنا وعندما دخلت خاطبت والدتي: أين ابنك مهدي؟ فأجابت والدتي: إنه يلعب في الدرب مع الأطفال الآخرين. وهنا فتحت (أم رشيد) عباءتها وظهرتُ خائفًا مرتجفًا مبتلّ الجسم وبسروال السباحة. ثم أردفت بسرد القصة لها وكيف أنقذت حياتي. وقالت لها أم مهدي: هاي عليها ذبيحة! أختي الكبيرة فخرية تأثرت للحادث وأرادت الانتقام من جابر الذي دفعني وكاد يغرقني. فخرجت إلى الطريق وأقنعته

بالذهاب معها لشراء بعض الحلوى من محل كاظم الأشرم المشهور الكائن في محلة الفلاحات البعيد عن داره. وبعد أن أوصلته إلى هناك تركته وحيدًا فضلّ الطريق ولم يتمكن من العودة إلى داره. وعند مساء ذلك اليوم، سمعنا الصياح والعياط ينبعثان من بيت العاني المجاور لنا لأن ولدهم محمد جابر «ضائع». وهكذا انتقمت أختي ونظرت إليّ مبتسمةً لأنها أخذت بثأرها نيابة عني!

الانتقال إلى بيت جديد

في سوق العجيمي

استأجر والدي هذه الدار التي كانت أكبر حجمًا وأكثر أناقة من سابقتها من عائلة عبد الغني البعلي. وقد دعا والدي أخاه الأصغر محمد حسين للسكن معنا ولاحظنا أنه خصص له أفضل الغرف وأوسعها وهي تطل على الشارع. كان الوالد يعزّه ويعطف عليه كثيرًا، وكان عمي أصغر منه حوالى أربع سنوات ولكنه يحترمه ويعامله كوالده. كانت علاقتي مع العم وثيقة جدًا لأنه كان يداعبني أكثر من والدي الذي يتسم بالجدية عند التعامل معي. كنتُ أرافق العم عندما يذهب إلى دور السينما التي أحبها كثيرًا وخصوصًا أفلام رعاة البقر، حيث أجلس معه في الدرجة الأولى التي كانت أجرتها سبعين فلسًا. لكن عندما كنت أذهب وحدي مرة واحدة في الشهر، كنت أجلسُ في الدرجة الثالثة وسعرها ثلاثون فلسًا. خصّص الوالد لي ستة فلوس يوميًا وكنت أجمع في الوقت نفسه فلسًا واحدًا لأدّخر ما يكفي لبطاقة دخول كل شهر. كان العم يهوى تربية الخيول حتى قبل وفاته، وكنت أرافقه لمشاهدة سباق

الخيل الكائن في منطقة العلوية (يسمى بالريسز). وأتذكر مشاهدة الوصيّ على العرش عبد الإله غالبًا ما يكون جالسًا في المقصورة ويحمل عادة وردة حمراء اللون، ومن أشهر الفرسان (الجوكية) هم منفي، شلال وستوري. فكان عامة الناس عندما يريدون أن يُعبّروا عن تحبيذهم للسرعة يقولون (سوك منفي). ولا أنسى الليالي الجميلة التي كنت أقضيها معه في الجرداغ الذي يستأجره في موسم الصيف في منطقة كرادة مريم على ساحل نهر دجلة (المنطقة الخضراء حاليًا)، وكانت تسمى آنذك «الگاورية». وفي كل ليلة كان يسهر مع أصدقائه يشربون ويغنون ويأكلون السمك المسكوف. كنت أنام مبكرًا وأستيقظ في الصباح الباكر حيث أسبح معه في النهر الهادئ النظيف كأنك في قارة أفريقيا. وبعد الفطور المقدم من قبل فلاحي المنطقة الذي يتكون من الزبد والتمر والشاي والحليب الطازج، يشدُّ الرحال راجعًا إلى مركز المدينة حيث عادة يعبر سائق الزورق (البلام) إلى الجانب الآخر من النهر المحاذي لشارع «أبو نواس» حتى يصل إلى الباب الشرقي. كنت أشاهد في طريقنا عشرات الجراديغ على شاطئ أبو نواس تسكنها عوائل مسلمة ومسيحية وحتى يهودية. وكنت أرى منظر العوائل في هذه الفترة الصباحية يسبحون أو يفطرون قبل أن يرتدوا ملابسهم ليغادروا متوجهين إلى أعمالهم اليومية. بعد أن نترك القارب من الباب الشرقي نأخذ الباص الصغير ذا اللون الرمادي لينقلنا

إلى شارع البنوك وسط شارع الرشيد، حيث له جلسة في مقهى التجار لشرب القهوة وتداول ما جدَّ في سوق المال وحركة السوق اليومية مع التجار وأصحاب الحرف، قبل أن يغادر إلى محله للعمل حتى المساء.

إحدى المفارقات التي لا أزال أتذكرها جيدًا، أنه مرةً واحدةً اصطحبني إلى ملهى ليلي بدل السينما وكان عمري آنذاك حوالى سبع سنوات. فسألته بعد مشاهدتي قسمًا من العرض المسرحي: شنو هذا المحل عمو؟ أجاب: سينما. لكني سارعت باستفساره:

ـ عمو، حركاتهم مختلفة عن رويال سينما!

وهنا أجابني مُحرجًا:

ـ هذي عمو سينما خاصة متحركة مخصصة للكبار فقط! وقد أخذتك إليها عن طريق الخطأ ولا تذكر ذلك لأحد!

كان والدي جديًا ولا يريد أن يعطيني مطلق الحرية في العطلة الصيفية، وخصوصًا بعد أن سمع قصة الحادثة التي تعرضت فيها للغرق. كان يطلب إلي أن أذهب إلى محله (الدكان) يوميًا قبل موعد الغداء. عادة كنت أجلس بجانبه متفرجًا على عملية البيع إلى المشترين وغالبيتهم من النسوة. لاحظت أن تلك العملية في ذلك الوقت كانت شاقة والربح محدودًا يراوح بين 5 ـ 10% فقط وذلك لشحة النقد عند عامة الناس. كان حوالى نصف الذين يأتون إلى والدي وعمي زبائن دائمين. أما النصف الآخر وهم الجُدد فغالبيتهم من الريفيين والريفيات الذين يسكنون خارج المدينة ويأتون إلى محلاتنا بصحبة «الدلالين» المحليين الذين كانوا يلبسون عادة الملابس الريفية أيضًا في أوقات العمل حيث يستقبلون الناس عند مدخل السوق، وبعد أن يستفسروا عن الحاجات التي يرومون شراءها يأخذونهم إلى الباعة ويقدمون أنفسهم للبائعين زورًا بأنهم أقارب أو أصدقاء هؤلاء البسطاء من الناس المشترين. وعند المساومة على سعر البضاعة عادة يصطفون مع المشتري لكسب ثقته

ولتسهيل عملية البيع الصعبة. وعند إتمام الصفقة يأخذ هؤلاء عمولة (بخشيش) دسمة من هؤلاء الريفيين كما يرجعون إلى البائع لأخذ عمولتهم البسيطة التي قد لا تتجاوز 10 ـ 20 فلسًا.

شاهدت الهبوط في الحركة التجارية في سوق الأقمشة منتصف الثلاثينيات الذي صحبه إفلاس عدد كبير من التجار، بسبب الكساد العالمي الذي حدث في مطلع الثلاثينيات في أميركا وامتدّ ليشمل جميع أنحاء العالم. وبهذه المناسبة أذكر أن خمسة تجار يمثلون نصف عدد أفراد عائلة آل مكية البارزين في سوق الأقمشة قد أفلسوا في تلك الفترة من الزمن.

كان مقياس النجاح ولا يزال في التجارة والمهن الحرة بصورة عامة، يعتمد على جُهد الفرد وذكائه وتواصله الاجتماعي مع الناس الذين يتعامل معهم. ولكن بالمقارنة بالوظيفة الحكومية، نجد أن الفرد يشعر بعدم الضمان المادي والطمأنينة إلى مستقبله. لذلك كان والدي رغم النجاح الذي حقّقه والمال الذي جمعه تراه مستمرًا في العمل الجدي على الدوام لأن التنافس مفتوح والسقوط متوقع في أية لحظة!!

تحول والدي بمرور الزمن من بائع مفرد بسيط إلى بائع جُملة. لذا كان عدد كبير من التجار الصغار خارج

بغداد وخصوصًا المناطق الغربية من العراق يتعاملون معه لشراء كميات كبيرة من البضائع الرائجة هناك بأسعار الجملة المخفضة عادة. ومن هؤلاء كان التاجر «عباس الجونة» من سامراء الذي أصبح صديق العائلة يستضيفه والدي في منزلنا يومين أو ثلاثة عند وجوده في بغداد لشراء البضائع المختلفة ومن جملتها الملابس الريفية للنساء. كان عباس طويل القامة يلبس الزي العربي ذا وجه باسم. وكان كلما زارنا في البيت يأتي دائمًا حاملًا على ظهره كيسًا كبيرًا مملوءًا ببطيخ سامراء اللذيذ، وكان هذا النوع نادرًا وغالي الثمن في بغداد وينزل إلى السوق قُبيل موسم الشتاء بفترة قصيرة.

سفرة بالقطار إلى سامراء

كان عباس يلحُّ في دعوة العائلة لزيارة سامراء.

وأخيرًا قررنا السفر إليها مع عمي وجدي لزيارته وزيارة العتبات المقدسة في الوقت نفسه وهي «زيارة وتسيارة». كانت السفرة ممتعة لي لأننا سافرنا بواسطة القطار، وكان آل «الجونة» في مدينة سامراء في استقبالنا عند محطة القطار، ومن هناك توجهنا إلى دارهم التي كانت تتكون من بيت خارجي (براني) لسكن واستقبال الرجال وبيت داخلي للعائلة. قام هو وعائلته بخدمتنا وكرّمونا بصورة لا توصف، إذ إنهم كانوا يقدّمون بسرور وسعادة

الطعام والشراب لعشرين فردًا منا، مدة ثلاثة أيام متوالية مع ثلاث وجبات دسمة يوميًا.

لاحظت أن التجار اليهود في سوق الأقمشة كانوا يدرّبون أولادهم أثناء العطل الصيفية، على ممارسة البيع والشراء منذ نعومة أظفارهم. وكنت أشاهدهم يرتدون السراويل القصيرة، وهم يعلّقون برقابهم (جامبر خشبي) عليه أنواع البضائع الصغيرة المتنوعة وهم يعلنون عنها بصوت مرتفع: (قرصات للبيع، ماشات شعر للبيع، ريحة طيبة للبيع.... وهكذا). بينما كان التجار المسلمون يستنكفون من إرسال أولادهم لمنافستهم.

بعد أن توفى والدي تجاوب عمي معي عندما طلبت منه أن أشتري الخام الأبيض بسعر الجملة، وأجلس على كرسي قريب من محله لبيعه بالمفرد للناس المارة في السوق. نجحت هذه العملية وكنت أبيع معدل طولين من الخام يوميًا، والربح الصافي يراوح بين 40 ـ 50 فلسًا وهذا مبلغ كبير بالنسبة إليّ. كما أني اكتسبت بعض الخبرة بالسوق في هذا العمر المبكر! وهكذا أصبحت أغنى رفاقي وصار بإمكاني أن أذهب إلى سينما «رويال» المشهورة (مقابل ساحة الرصافي الحالية) مرة كل أسبوع.

كان أغنى فرد في العائلة آنذاك محمد كاظم مكّية يليه والدي. كان الأول مختصًا ببيع الأقمشة الحريرية للنساء من

الدرجة الأولى لجميع أنحاء العراق، ولم يتمكن التجار اليهود من منافسته في هذا الشأن، وكان له حظوة عند الطبقة الحاكمة والأرستقراطية في البلد، بينما كان الوالد شديد الاهتمام بتنمية شعبيته داخل وخارج الإطار العائلي.

علاقات اجتماعية وإنسانية بين الأقارب والأصدقاء

حريق في طرف السادة: في أحد الأيام، وبينما كنت في طريقي من المدرسة إلى البيت لتناول الغداء، شاهدت الناس مزدحمين وسيارة الإطفاء تخترق الطرقات الضيقة متوجهة إلى «طرف السادة». فركضت مع الناس لأرى مصدر الحريق فلاحظت أنه في الزقاق الذي يسكن فيه جدي الحاج مجيد، وتراءى لي أن داره هي التي كانت تحترق. وفي أثناء ذلك شاهدت جدي متوجهًا إلى بيت المختار المجاور لداره، فتبعته، وعندما رأى من سطح هذه الدار أن داره المتكونة من طابقين لم تبق منها سوى قطع كبيرة من الفحم لا يزال الدخان يتصاعد منها، لاحظت الدموع تنسكب من عينيه لا إراديًا وبدون صوت، لكنني بكيت بصوت مسموع وبدموع غزيرة.

عندما علم والدي بالأمر سجل إحدى دور العرصات التي أتم بناءها أخيرًا باسمه ملكًا له والسكن فيها على الفور. هذه العلاقات الاجتماعية العائلية عوّضت عن شركات التأمين الموجودة حاليًا في المجتمع الغربي.

كانت لجدي سمعة واسعة في السوق لأنه من أشهر بائعي ومستوردي العباءات النسوية الحريرية في العراق، التي كان يستوردها خصوصًا من الصين وتسمى «كتّان جين». وبالإضافة إلى نجاحه في التجارة كان شخصية اجتماعية مرموقة في جانب الكرخ، وكان صديقه الحميم الضابط الكبير اللواء «سعيد بك التكريتي» الذي أصبح صديقًا للعائلة أيضًا، وكنت أذهب أحيانًا إلى داره الواقعة قرب الجعيفر مباشرة على طريق سكة حديد عربات الكاظم التي تنقل المسافرين بين بغداد والكاظمية. وكان متزوجًا بابنة شيخ السوامرة في بغداد المدعو صبار (أبو خلف) الذي كان بيته لا يبعد عن بيت ابنته سوى عشرات الأمتار. ذكرت تلك التفاصيل لكي أُعطي القارئ فكرة عن الألفة والصداقة في ذلك الزمن، وما كانتا تخلقانه من نوع من الروابط التي تشد النسيج الاجتماعي في البلد على الرغم من الاختلافات الطبقية والطائفية والعرقية.

كان سعيد يزور جدي في محله بسوق البزّازين مرة في الأسبوع، ويجتمعان في المساء تقريبًا على الدوام في المقهى البيروتي المشهور، حيث تكون مقدمة المقهى محجوزة لهما مع ثلّة من شخصيات المجتمع الكرخي، منهم الشاعر المعروف ملا عبود الكرخي وحمودي الوادي ومحمد بك وغيرهم. في الصيف تلتقي هذه المجموعة في مقهى حساني الواقع على شاطئ دجلة في منطقة «باب السيف». وقد صاحبتهم عدة مرات في سفراتهم النهرية

المسائية إلى منطقة الكاوريه في كرادة مريم، بواسطة القارب الذي يسوقه عادةً البلام المشهور «دعبول»، الذي كان الفنان والممثل المشهور وصديقي يوسف العاني يعشق شخصيته الشعبية البغدادية، ويتطرق إلى ذكره في بعض المناسبات. كان دعبول يجيد غناء المقام العراقي ويلقيه بحماسة ظاهرة وأحيانًا يبكي ويضرب رأسه بيديه متحمسًا!

في إحدى الليالي التي كنت معهم وأثناء الرجوع بعد سفرة طويلة، أخذ سعيد يداعب الملا عبود الكرخي قائلًا له:

ـ مُلا أنت شعبيتك في كرادة مريم آخذة في التدهور!

أجاب الملا:

ـ سعيد أنت متوهم ما شفت كيف رحّبوا بي عندما مررنا بهم قبل الغروب!

فردّ سعيد عليه قائلًا:

ـ لكن الآن يعرفون أنك راجع ومع ذلك ذهبوا للنوم ولم ينتظروا ولم يبالوا برجوعك!

هبّ الملا واقفًا وصاح بأعلى صوته والظلام الدامس يلفُّ ساحة النهر:

ـ كرادة آني منو!

فصاح عشرات الأشخاص من الذين كانوا لا يزالون جالسين في الظلام بأعلى أصواتهم:

ـ أنت ملا عبود الكرخي.

فجلس ملا عبود مبتسمًا ومتفاخرًا! وفي هذه الأثناء وقف دعبول الذي كان يقود الزورق مخاطبًا ومتحديًا الملا:

ـ تتصور بس أنت شعبي ومعروف!

وبعد ذلك عفطَ (ضرب زيك بغدادي) وصاح للجالسين في الظلام:

ـ آني منو؟

فأجاب كل الجالسين بحماسة مماثلة:

ـ دعبول البلام!

شخصيات شعبية بغدادية طواها الزمن ولكنها كانت تُغني العلاقات الإنسانية والروابط الاجتماعية التي حُرمنا منها بمرور الزمن. أعتقد أن معرفتها والاعتزاز بها ضروريان لأنها جزء مهم من تاريخ تراثنا الاجتماعي.

الشعائر الحسينية في بغداد

(الثلاثينيات)

موضوع لا بدّ من الإشارة إليه كما شاهدته في فترة الثلاثينيات إذ كان الناس في بغداد بصورة عامة والطائفة الشيعية بصورة خاصة، يتقيّدون ويلتزمون بحرمة شهر محرم. إذ يطغى اللون الأسود على كل شيء على جانبي النهر (الكرخ والرصافة). وفي الأيام العشرة الأولى من هذا الشهر، يتدافع الرجال والنساء والأطفال لمشاهدة مواكب الشعائر الحسينية الصاخبة في الطرقات الرئيسية على جانب الكرخ، تتقدمها المشاعل النفطية الكبيرة والثقيلة يحملها أفراد أقوياء الأجسام والعزيمة. الموسيقى الحزينة والطبول تدق لتزيد من حماسة الناس الذين يلطمون أجسامهم بأيديهم ومنهم من يستعمل السلاسل الحديدية لضرب ظهورهم، وقليل منهم يعاقب نفسه بضرب مقدمة رأسه بالقامات الحديدية. وفي اليوم العاشر عادة، تقوم فرق تمثيلية بدائية بمحاولة تمثيل حادث استشهاد الإمام الحسين عليه السلام (تسمى التشابيه). كانت كل هذه الشعائر تثير عاطفة الرجال والنساء بصورة منقطعة النظير! تتوجه هذه

الجموع من المناطق التي ابتدأت منها نحو قصر أو بيت النواب الكائن على شاطئ نهر دجلة ولا يبعد سوى مائة متر عن محطة عربات الكاظم.

لقد سمعت وأنا صغير في ذلك الوقت، بعض المثقفين والمفكرين من الطائفة الشيعية يحاولون التقليل من حدّة هذه المشاعر العاطفية، وحثّ الناس على تعميق مغزى تضحية وشجاعة الإمام الحسين والاهتمام بإيجابيات هذا الحادث التاريخي المهم. وحسب ما علمت، أن الوزير الشيعي صادق البصام نجح في هذا الصدد، حيث اقتصرت بعدئذٍ على إقامتها في الجوامع والحسينيات والأماكن المقدسة.

عائلة النواب كريمة ومتميزة

استرعى انتباهي سجل عائلة النواب الساكنة على شاطئ دجلة في جانب الكرخ، والنازحة من قلب آسيا في الهند إلى بغداد، لتتنور بحضارته وتسترشد بتاريخه الزاهر. لم يمض إلاّ وقت قصير على استقرار هذه العائلة العريقة في بغداد حتى تغيرت الأمور وتشردت العائلة، كما تشردت عقول وتفتتت قلوب العراقيين على مدى أربعة عقود طويلة ومظلمة. من هذه العائلة صديقي علاء النواب بطل العراق في السباحة في مطلع الخمسينيات، وكذلك الدكتور اللامع ضياء النواب أستاذ الأنف والأذن والحنجرة في جامعة بغداد، الذي أصبح (تقريبًا) عديلًا لعبد الإله الوصي على عرش العراق، الذي تزوج «هيام» ابنة محمد الأمير (أمير ربيعة) التي هي ابنة عم السيدة «أميرة» زوجة الدكتور ضياء.

استمرت هذه العائلة رغم تشرذُمها وتَهجيرها على رفد المجتمع العراقي في المهجر بشخصيات مميزة. وهذه المرة بشاعر فذ مبدع هو «مظفر النواب». سقط النظام في حين أن أهل العراق نسوا أو تناسوا حبيبهم ومطربهم مظفر النواب، الذي يعيش مريضًا في بلاد الشام التي اختارها لكي لا يكون بعيدًا عن أهله وأحبائه في العراق.

الانتقال إلى البيت الغربي الحديث

كانت طفرة كبرى إلى الأمام في أسلوب معيشتنا، حيث أن الوالد استعد لهذا المشروع منذ زمن بعيد وهيأ المبالغ اللازمة له. البيت الجديد كائن في منطقة الصالحية قرب جسر مود الذي شُيّد على الطريقة الغربية. فالدار لا تحتوي على ساحة وسطية مفتوحة كما هو الحال في بيوتنا الشرقية، وكانت تتكون من أربع غرف وصالة وسطية تسمى (الهول)، وطارمة خارجية تطل على حديقة صغيرة تسمى (البقجة)، والتواليت شرقي حديث، والحمّام يُسخن فيه الماء من خارجه بواسطة موقد موجود في المطبخ المجاور له، والوقود المستعمل هو قطع الخشب لتسخين (البويلر) وأرضية الحمام من الأسفل.

قبل أن ننتقل إليها كانت الدار مؤجرة لضابط طيار في الجيش العراقي من آل السعدون في البصرة، وكان يدفع مبلغ خمسين دينارًا لنا بدل إيجار سنوي. إن هذا البيت الذي سكنا فيه على بساطته بقياس الوقت الحالي كان يسمى بالقصر في أواخر الثلاثينيات.

سنة 1938، انتقلت إلى الصف السادس في المدرسة

الجديدة والحديثة الكائنة قرب دارنا وكان اسمها مدرسة المنصور الابتدائية، وكان موقعها مقابل دار الإذاعة العراقية وجمعية شبان المسلمين. تعتبر منطقة الصالحية في ذلك الوقت خارج وسط بغداد المزدحم وكانت المنطقة بحق بقعة خضراء هادئة يؤمّها الناس وعوائلهم أحيانًا في المساء والعطل للترفيه والتسلية.

العوائل التي كانت تسكنها تنتمي إلى الطبقة المتوسطة العالية المستوى والغنية. نصفهم من الجالية المسيحية واليهودية. من العوائل المسلمة التي أتذكرها عائلة السيد كاظم بهية (من محافظة الحلة)، والملا عبود الكرخي، وعائلة إبراهيم الشادي معاون مدير الشرطة العام، وأولاده كانوا أصدقائي وهم طارق ومنذر وهشام الذي كان أصغرهم. كان هناك بيت كبير على شاطئ النهر تسكنه عائلة حاكم من بيت الانكرلي، وبيت كبير في الجانب الآخر يسكنه الملاّك المشهور «أحمد الغائب».

حفلة ختان شعبية منقطعة النظير

بعد أشهر قليلة من انتقالنا إلى هذه الدار، بدأ الوالد والعم أبو طارق الاستعداد للحدث الكبير الذي كانا يخططان له مع جدي الحاج مجيد منذ مدة طويلة، والذي كان بدوره ينسّق مع صديقه الحميم سعيد التكريتي، لكي تكون حفلة ختان ولده (عامر) في الوقت نفسه المحدد لحفلة ختان حفيديه أنا وابن عمي الطفل طارق، (علمًا أن عمري كان آنذاك حوالى الإحدى عشرة سنة وطارق عمره لا يتجاوز السنة).

بدأت الحفلة الشعبية الكبرى في المساء حيث خرجت من بيت جدي القريب من دارنا مسيرة كبيرة يتوسطها طابور من حملة الصواني المحمّلة بالورود والحلوى ومضاءة بالشموع. كنت أنا أمشي في مقدمتها مرتديًا الدشداشة الحريرية البيضاء، وكان أمامي الجوق الموسيقي العسكري، كما يحيط بهذه المسيرة الطويلة فوج من الجنود من معسكر الوشاش. ابتدأت هذه التظاهرة من رأس جسر مود في الصالحية، مارة بساحة الملك فيصل الأول فالشواكه فباب السيف فعلاوي الحلة، حتى تصل إلى دار سعيد في منطقة الجعيفر. في الليلة نفسها كان سطح منزلنا معدًا لإحياء حفلة

شرب وعشاء موسيقية لهذه المناسبة. امتدت السهرة حتى الصباح واشتركت في إحيائها المطربة السمراء عفيفة اسكندر، والشقراء نزيهة. وإني أتذكر بمرارة عملية الختان المؤلمة التي أُجريت لي صباح اليوم الثاني بدون تخدير موضعي أو عمومي، ولكن عوّضوهما بإقفال فمي قسرًا بالحلوى وأذني بالموسيقى الشعبية الصاخبة.

أتعجب الآن كيف أن الناس والصحافة لم يشتكيا أو حتى ينتقدا هذه المسيرة، التي أوقفت حركة السير في شوارع الكرخ الرئيسية من جنوبه إلى شماله، وكذلك استخدام القوات المسلحة للدولة بمناسبة شخصية تمسّ أحد ضُبّاط الجيش الكبار وأصدقاءه من المواطنين المدنيين. أعتقد أن الناس في ذلك الزمن كانوا يتقبلون ذلك كعلاقات اجتماعية متوارثة، وقد يعتبرونها طبيعية ما دامت لا تمسّهم بأذى مباشر، وقد تملأ نفوسهم بالفرح والمرح، لأن حياتهم في ذلك الوقت كانت رتيبة ومملة وخالية من كل وسائل اللهو والتسلية، وقد ينظرون إليها بإعجاب ويحاولون تقليدها بطريقة أو أخرى إذا سنحت لهم الفرصة بذلك. لعل لعلماء الاجتماع تفسيرًا أفضل لهذه الظاهرة التي لا يتقبلها المجتمع المدني الحديث وحقوق الإنسان في الوقت الحاضر.

حادث مصرع الملك غازي

صباح أحد أيام الربيع عام1939، ونحن جالسون في الصف السادس في مدرسة المنصور الابتدائية، سمعنا دوي أصوات صاخبة في الشارع المقابل للإذاعة في الصالحية، تشير إلى مصرع الملك غازي الأول بحادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي قرب قصر الزهور، الذي يعيش فيه والكائن في منطقة الوشاش. خرج طلاب مدرستنا إلى الشارع على الفور وبدون أخذ إذن من الإدارة. ركضت أنا مع الجماهير المتوجهة إلى قصر الزهور الذي يبعد حوالى نصف ساعة من مدرستنا. شاهدت بنفسي السيارة المكشوفة وعمود الكهرباء الحديدي المفروض أنه اصطدم به، مقلوبًا فوق مقدمة السيارة وتقريبًا حيث يجلس السائق. لم أجد هناك آثار دماء ساقطة في داخل السيارة أو على الأرض التي حولها. والغريب، لم تكن هناك حراسة مشدّدة حول الموقع ويسمح لكل الناس بمشاهدته بحرية تامة!

طبعًا ظهرت إشاعات كثيرة بين الناس، أن الإنكليز هم الذين دبروا الحادث للتخلص من الملك لميوله الوطنية وتحبيذه لفكرة إدماج الكويت بالعراق. أتذكر أن الأخبار أشارت إلى أن تظاهرة صاخبة خرجت في مدينة الموصل،

هجم فيها المتظاهرون على دار القنصلية البريطانية هناك. لكن جماهير الناس على العموم في بغداد، بعد أن شاهدت موقع الحادث وإذاعة التقرير الطبي في اليوم نفسه، اطمأنت إلى أن الحادث كان قضاءً وقدرًا. وكان التقرير الطبي الذي أُذيع موقّعًا من لجنة طبية تتألف من الدكتور «سندرسن باشا» عميد كلية الطب في بغداد، والدكتور صائب شوكت أستاذ الجراحة والدكتور هاشم الوتري أستاذ الطب الباطني.

كان تشييع الجنازة يومًا جماهيريًا مشهودًا في بغداد وأتذكر أحد مقاطع الأهازيج الشعبية التي كانت تثير المشاعر والعواطف:

الله أكبر يا عرب غازي انفكد من داره

وارتجت أركان السما من صدمته السيارة

وفاة الوالد بحادث سيارة

توفي والدي في السنة نفسها وبحادث سيارة أيضًا كما كان الحال في مصرع الملك غازي. كان الوالد في طريقه لزيارة كربلاء مع العم أبو طارق وثلاثة من أصدقائه المقربين. كان الطريق بين بغداد وكربلاء غير مزفت. وقع الحادث قرب مدينة المسيّب. لم يصب أحد من المرافقين بأي أذى ولكن الوالد فقد وعيه بعد الحادث، ونُقل إلى المستشفى الملكي في بغداد، حيث تبين أنه أُصيب بنزف في الدماغ وكسر في الجمجمة أديا إلى وفاته في اليوم التالي. كان تشييعه حافلًا ومُفعمًا بالعواطف. ابتدأ موكب التشييع من المستشفى الملكي (مدينة الطب حاليًا) مخترقًا شارع الرشيد فجسر الشهداء متوجهًا إلى جانب الكرخ، ومن هناك نُقلت جثته إلى النجف الأشرف. أغلقت أغلب المحلات في سوق البزازين والصفافير (سوق الصفارين) أبوابها صباح ذلك اليوم لحضور تشييع الجنازة.

بعد الفاتحة، اجتمع بي العم أبو طارق وزوج أختي ابن العم الدكتور عبد العزيز صالح مكية متسائلين إن كنت أُحبّذ ترك المدرسة وإدارة عمل والدي! كان جوابي بالنفي! قائلًا لهم: إني أروم تكملة دراستي. وبهذا الحدث الأليم

ازدادت مسؤولياتي بصورة مبكرة جدًا. اشتريت دراجة هوائية مستعملة بخمسة دنانير، للتنقل والتسوق صباح كل يوم قبل الذهاب إلى المدرسة، من سوق الشواكة القريب من السفارة البريطانية. وهكذا تدرجت الأمور حيث نجحت في تلك السنة بعد أن اجتزت الامتحان الوزاري.

ذكريات في الأربعينيات
تبدأ منذ دخولي
مرحلة الدراسة المتوسطة

مرحلة الدراسة المتوسطة

دخلت مدرسة الكرخ المتوسطة وكانت هي المدرسة الوحيدة في جانب الكرخ. من تلاميذ صفي وأصدقائي يوسف العاني، مصطفى الخضار، حسين محمد الصدر، نبيل الدجيلي وغيرهم!

ملاحظاتي عن تلك الفترة أن التلاميذ غير متقاربين في الأعمار، إذ إن حوالى نصفهم من كبار السن نسبيًا وتراوح أعمارهم بين 15 ـ 20 سنة. أدى ذلك إلى صعوبة جمّة في السيطرة عليهم من قبل الإدارة والمدرّسين. كان التدخين في كواليس المدرسة مألوفًا، ويوم السبت (وهو يوم سباق الخيل) كنت تجد المدرسة نصف خاوية عند الظهر، لأن الكثير من الطلاب يهربون لمشاهدة سباق الخيل والمراهنة على الخيول المتسابقة!

انتشار النازية في العراق

في عام 1941، كنت في الصف الثاني والحركة النازية منتشرة في البلاد العربية وخصوصًا في العراق والتلاميذ، وأنا منهم، كنا نعتبر النازية مُرادفة للوطنية، والناس يعتقدون أن الإنكليز هم المشكلة الوحيدة في البلد. كنا نستقي الأخبار عبر راديو برلين الناطق باللغة العربية ونطرب لسماع صوت مذيعها المشهور «يونس بحري»، الذي يُغرد كل مساء أثناء الحرب العالمية الثانية بين دول المحور والحلفاء.

كان سامي شوكت المندفع وراء النازية مديرًا عامًا في وزارة المعارف (التربية حاليًا)، أصدر آنذاك أمرًا إداريًا لكل مدارس العراق بإشراك طلبة الصف الثاني (متوسط) بفرق الجوالة وكنت أحد هؤلاء الطلبة. كان زيّنا الموحد ملابس من أقمشة خشنة الملمس رصاصية اللون مصنوعة في معامل «فتاح باشا» في الكاظمية. أما طلاب الصف الثالث فملابسهم من الخاكي ويحملون السلاح عند التدريب.

لقد عمم سامي شوكت المتحمس للقومية العربية المتطرفة الشعار الوطني الذي استحدثه لجميع مدارس

العراق وهو (اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم)، معتقدًا أن هذا الشعار سيُنمي الشعور القومي والروح العسكرية عند الشباب وحتى الأطفال. يُقال أنه أرسل مفتشًا على مستوى عالٍ إلى مختلف مدارس العراق الجنوبية للتأكد من رفع هذا الشعار وتطبيق مضمونه على الصعيد العملي. يُحكى أن هذا المفتش زار مدينة «الجبايش» في منطقة الأهوار المعزولة حيث توجه مع مدير المدرسة في المدينة ليفتش مدرسته. عندما وصل شاهد أن كل ما هناك هو سور من الطين وغرفة للمدير وقاعة صغيرة مبنية من اللبن (الطين) لتدريس جميع صفوف المدرسة التي لا توجد فيها رحلات، والطلبة يجلسون على الأرض المغطاة بالحصر، وهناك سبورة قديمة فاقدة لونها الأسود مع قطع طباشير متحجرة موضوعة على حافتها، ولكن بالمقابل شاهد هناك قطعة خام كبيرة بيضاء تغطي الحائط الجانبي للقاعة مكتوب عليها الشعار المطلوب!! التفت المفتش مبتسمًا وقال للمدير: إن المدرسة لا تحتاج إلى هذا الشعار لأن عندكم خشونة منقطعة النظير تُغنيكم عن المزيد يا سيدي المدير.

حركة رشيد عالي الكيلاني

حدث انقلاب رشيد عالي الكيلاني في عام 1941، كان له تأييد جماهيري كاسح في جميع أنحاء العراق. في تلك الفترة أعلنت الحكومة البريطانية الحرب على العراق بحجة عدم السماح لعبور قواتها الأراضي العراقية. في بداية الحرب أغارت بضع طائرات بريطانية على بغداد، وكنت أشاهد بحماسة بعض المواطنين يطلقون النار عليها من مسدساتهم القديمة وهم فوق منازلهم محاولين إسقاطها!! غادر معظم سكان بغداد إلى المناطق الريفية والمدن المقدسة خوفًا من القصف الجوي الذي لم يستهدف المدنيين وكان محدودًا جدًا. لقد استأجرت العائلة بيتًا في مدينة الكاظمية يقع في وسط السوق الرئيسية، وهو يعود إلى عائلة الاسترابادي المشهورة.

كانت الحرب قصيرة ومحسومة مُسبقًا. احتلّ الجيش البريطاني البصرة بدون مقاومة تذكر متقدمًا إلى بغداد. كان الجيش العراقي يستعد لاحتلال الموقع العسكري البريطاني الموجود في الحبّانية وكان يسمى (سن الذبان). سقطت بغداد قبل دخول قوات الجنرال البريطاني المدعو (أبو حنيج)، المُرسل من الأردن لمساعدة القوات البريطانية في

العراق. هربت الحكومة وثار الناس وخرجت جماهير غفيرة إلى الشوارع الرئيسية في جانب الرصافة متهمة الجالية اليهودية في بغداد، بأنها السبب في انهيار الجيش في حربه مع بريطانيا. لقد اشتركتُ مع بعض زملائي الطلاب في مدرسة الكرخ بهذه التظاهرات الصاخبة وغير الموجهة، وشاهدت الجماهير تحطّم محلات اليهود ومكاتبهم وتسرق ما بداخلها. سُميّ هذا اليوم بـ«يوم الفرهود». حاول بعض أفراد الجالية اليهودية التصدي في مناطقهم الشعبية لهجوم هذه الجماهير وخصوصًا في منطقة (أبو سيفين) مما أدى إلى قتل عدد منهم.

اشتراك الطلبة بحماسة في تأييد هذا الانقلاب، دفع الحكومة إلى أن تضع في الامتحانات الوزارية أسئلة صعبة وفوق مستواهم العلمي، لكي يهتموا في المستقبل بدراستهم ويجتنبوا التدخل في السياسة العامة للبلد. ولهذا لم يتمكن من اجتياز الامتحان الوزاري في مدرستنا سوى نسبة ضئيلة لا تزيد على 20% فقط. من حسن الحظ أن أكون أحد الناجحين وتأهلت لدخول المدرسة الثانوية المركزية وهي المدرسة الحكومية الوحيدة في مدينة بغداد. ومما يجدر ذكره وجود مدارس ثانوية عديدة أخرى للطوائف المختلفة الموجودة في بغداد كمدرسة شماش للجالية اليهودية، وكلية بغداد للجالية المسيحية، وكذلك هناك المدرسة الجعفرية التي تديرها هيئة من الطائفة

الشيعية، والتفيض كانت تديرها من قبل لجنة من إخواننا من الطائفة السنية.

مدة الدراسة الثانوية سنتان وهي من قسمين: علمي وأدبي، اخترت القسم العلمي واجتزت الامتحان الوزاري للمرحلة الثانوية بنجاح وبمعدل مرتفع (حوالى 74% لكل مادة). كان الطلاب الذين يحصلون على معدل يفوق الـ70% يتاح لهم دخول كلية الطب في بغداد، أو الالتحاق بالبعثات الحكومية المرسلة إلى الدول المتقدمة، وخصوصًا بريطانيا على نفقة الدولة. فقررت دخول كلية الطب وقد حبّذ عمي وجدي هذا الاختيار، لأنّ الطب بالرغم من دراسته الطويلة الشاقة، مهنة مضمونة لأن العيادة المسائية تشكل قطاعًا اقتصاديًا خاصًا للطبيب يعتمدُ على المنافسة والمثابرة على العمل، كما أنها مورد ثانوي له وتكون مفيدة أيضًا عند التقاعد أو الاستغناء عن خدماته من قِبل الحكومة في بعض الأحيان.

الدخول إلى الكلية الطبية

عندما دخلت الكلية الطبية كان عميدها الدكتور سندرسن باشا البريطاني الجنسية الذي دخل العراق مع القوات البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهو متمرس في السياسة والإدارة والطب في الوقت نفسه. وكان هناك حوالى 80 ـ 90% من أساتذة الكلية بريطانيي الجنسية وذوي مستوى رفيع جدًا. كانت لغة التدريس هي الإنكليزية. وكانت السنة الأولى أصعب سنوات الدراسة لأن إجادة اللغة الإنكليزية كانت عاملًا مهمًا.

كان عدد الطلاب المقبولين لتلك السنة من كل أنحاء العراق لا يتجاوز الستين طالبًا. خمسة منهم من المسيحيين وخمسة آخرون من اليهود. وكانت نسبة البنات في صفنا حوالى 10%. منهن خالدة محيى الدين واصف، وسلمى الشيخ نوري وفاطمة الخرسان التي كانت الطالبة الوحيدة التي ترتدي العباءة وهي في طريقها إلى الكلية وقد خلعتها بعد السنة الأولى.

كانت ثلاثة دروس فقط تُعطى في الصف الأول نظريًا وعمليًا. وكان الدوام سبع ساعات يوميًا عدا العطل

الرسمية. تناول الغداء كان في مطعم الكلية وعلى حسابنا الخاص. أما الأساتذة فكانوا «بوزول» في علم البايولوجي، والدكتور المصري الجنسية «أمين بك» أستاذ التشريح والأستاذ «هوبكنز» في علم الكيمياء، وقد كان ذا مستوى علمي رفيع ويعمد في محاضراته إلى تدريسنا تفاصيل الكيمياء النووية الحديثة وكان حاد المزاج. ففي الكلمة الترحيبية بنا في أول محاضرة له بدأ حديثه وهو يبتسم: 30% منكم سيرحلون إلى كلية الحقوق في السنة القادمة، (علمًا أن الطالب الذي يرسب في السنة الأولى يُرفع قيده ويترك الكلية إلى الكليات الأخرى). وحظه سيكون أوفر في كلية الحقوق التي كانت تستقبل أكثر من 500 طالب سنويًا. فتخيل أيها القارئ معنوياتنا وخوفنا من تهديداته.

اجتزتُ الصف الأول بعد جُهد جهيد إلى الصف الثاني، وفُتح المجال لي ولأخواني الطلبة بأن نشارك ولو قليلًا في الشؤون الرياضية والاجتماعية وحتى السياسية، التي كانت سوقها رائجة بين الطلاب في ذلك الوقت. كنت من المشاركين النشطاء في كل هذه الفعاليات. رشّحتُ نفسي ممثلًا للصف في لجنة اتحاد الطلبة وفزت في السنة الأولى من ترشيحي لها وفي السنوات الأربع التي تلتها. كان اتجاهي السياسي أقرب إلى اليسار المعتدل، ولكني لم أنتم إلى أي حزب قبل التخرج. وفعلت ذلك بعد رجوعي من الولايات المتحدة في نهاية الخمسينيات. وكان صديقي الدكتور جعفر الحسني هو المحفز والمشجع لي على ذلك.

أما في الشؤون الرياضية، فكنت رئيس فريق الصف والكلية في لعبة «كرة الطائرة» (اللعبة المنتشرة والمحببة لجميع طلبة الكليات في تلك الفترة). الحلقة من الأصدقاء التي انتميت إليها في الصف كانت نشطة اجتماعيًا وسياسيًا، ومن هؤلاء «مهدي السماك» سكرتير تحرير مجلة الكلية الطبية، و«جعفر الحسني» ممثل الحزب الوطني الديموقراطي في الكلية، ومحمد جابر محسن، وعلي النقيب، وعبد القادر الطالباني وغيرهم... وقد قمنا بإخراج تمثيليات مسرحية ومهرجانات ترفيهية في مختلف المناسبات بالاشتراك مع طلاب الصفوف الأخرى.

كان للشيوعيون نفوذ كبير، إذ كانوا يتحالفون بدهاء مع الديموقراطيين والليبراليين بصورة عامة. وكان أخواننا المسيحيون واليهود والأقليات الأخرى يضّمون أصواتهم عند انتخابات لجان الطلبة إلى الأحزاب والتكتلات اليسارية. كان هناك تيار سياسي قومي يستمد شعاراته من حزب الاستقلال وأبرز شخصياته في الكلية كان الطالب فؤاد حسن غالي. من أصدقائي الشيوعيين الذين كنت ولا أزال أحترمهم وأعتزّ بصداقتهم طارق علي الأمين وفاروق عبد الجليل برتو. كانت الحركة الإسلامية في كليتنا وفي بقية الكليات ضعيفة جدًا، ومن طلاب صفنا كان يمثلها «داود الصانع» و«صادق زلزلة» وكان أعضاؤها يتعاطفون ويتكتلون مع التيارات والحركات القومية.

وثبة كانون الثاني المجيدة (المنسية)

للأسف، لم يهتم المفكرون أو المؤرّخون للحركة الوطنية في العراق، بهذه الوثبة الشعبية التي قام بها طلاب عُزّل من أجل إسقاط معاهدة تم الاتفاق عليها بين الحكومة العراقية وبريطانيا العظمى، بدون استشارة الرأي العام العراقي الرافض لها. لذلك سأذكر بشيء من التفصيل وقائع هذه الوثبة التي حدثت في سنة 1948.

كان اتحاد الطلبة في الكلية الطبية هو المركز الرئيسي لتجمع طلبة الكليات والمعاهد العالية التي تروم التظاهر ضد هذه المعاهدة، لأن قوات الأمن والشرطة طوقت جميع مباني الكليات والمعاهد باستثناء مبنى الكلية الطبية الواقع داخل المستشفى الملكي (مدينة الطب الحالية). لذلك كان من العسير على هذه القوات الإحاطة بكليتنا لأنها جزء من المستشفى المزدحم بالمرضى والمراجعين دائمًا. وصباح كل يوم في تلك الأثناء، كانت الأحزاب الرئيسية من شيوعية وقومية ومعارضة وطنية تنسق من وراء الكواليس لإنجاح هذه الانتفاضة. كان اتحاد طلبتنا يتمتع بحرية في الحركة والتصرف لتهيئة الطلبة لرفض هذه المعاهدة والسير قدمًا بتظاهرات صاخبة لإسقاطها. أطلق الشرارة الأولى عدد

محدد من الطلبة لا يتجاوز المائة، وأغلبهم من طلاب كلية الطب والصيدلة. كنت أنا أحد الطلاب المشاركين فيها. حاول الطلاب الخروج إلى الشارع العام من خلال باب المستشفى الرئيسي الجانبي القريب من كلية الصيدلة، متحدين الشرطة المسلحة التي تنتظرهم خارج البوابة. كان سلاحنا الهتاف والحجارة. لكن الشرطة أخذت تطلق الرصاص الحي من بنادقها فوق رؤوسنا، غير أن الطلبة استمروا في التقدم. وبعد دقائق أُصيب أحد الطلاب في المقدمة (وكان يبعد عني حوالى عشرة أمتار) بطلق ناري في رأسه تدفق على أثره دماغه ساقطًا على الأرض بعد أن تهشمت جمجمته. عندما شاهدنا هذا المنظر الرهيب تراجعنا إلى كلية الصيدلة، وفي تلك الفترة ظهر فجأة عبد الرحيم الماشطة الطالب في الصف الرابع متقدمًا إلى الأمام. مرتديًا الصدرية الطبية البيضاء، رافعًا بيده دماغ هذا الشاب متوجهًا نحو مجلس الأساتذة في كلية الطب، الذي كان منعقدًا لإعداد بيان يشجب فيه عدم احترام قوات الشرطة والأمن حرمة الكلية والمستشفى الغاص بالمرضى والمراجعين. كان لمقتل هذا الطالب، الذي ظهر أنه من طلاب دار المعلمين الابتدائية (على الأغلب كان اسمه شمران؟)، صدى كبير في الشارع السياسي المتأزم أصلًا في بغداد وجميع أنحاء العراق، كما التهبت عواطف الطلبة في جميع أنحاء بغداد ناهيك عن استغلاله من قبل الأحزاب الوطنية والمعارضة والصحافة، لإسقاط حكومة صالح جبر التي وقّعت بالأحرف الأولى هذه المعاهدة.

الكل ينتظر الغد! قد تكون هناك معركة فاصلة بين الحكومة من جانب، والطلبة وخلفهم الجماهير الغاضبة من الجانب الآخر. اجتمع في الكلية الطبية قسم من الطلبة المتحمسين لهذا الأمر، مع ممثلين عن لجنة اتحاد الطلبة في دار صديقي علي حسين النقيب (الرفيعي) الكائن في كرادة مريم. حضر الاجتماع عدد من الطلبة الوطنيين الذين لا ينتمون إلى الكتل والأحزاب السياسية. حاولنا أن نتسلم جثة القتيل من معهد الطب العدلي الكائن خلف الكلية الطبية صباح اليوم التالي، وتشييعه من هذا المكان بحضور أكبر عدد ممكن من طلبة الكليات والمعاهد العالية. وفي حال رفض تسليمنا جثمان الشهيد، قررنا أن نمضي قُدمًا في إقامة جنازة رمزية بدل ذلك. تبرع الطالب جابر محمد محسن بشراء الصندوق الخشبي المعد لنقل الموتى، واقترح الزميل مهدي السماك أن يجلب قميصًا قديمًا من بيته ويلطخ جزءًا منه بالدم لتعليقه على النعش لإثارة عواطف الجماهير أثناء المسيرة. الاقتراح الأول الذي طُرح بيننا هل ستكون التظاهرة مسلحة أم لا؟ اقترحت الأغلبية عدم حمل السلاح، لأنه سيؤدي إلى استفزاز الشرطة ويعطيهم المبرر لكي يستعملوا القسوة في تفريقنا. بدلًا من ذلك تمّ الاتفاق على رفع مئات من الشعارات المكتوبة على قطع كارتونية صغيرة محمولة بأيدي المتظاهرين بواسطة أعمدة خشبية، وعند محاولة الشرطة تفريق التظاهرة بالقوة، تنقلب شعاراتنا إلى عصي غليظة بأيدينا لمواجهة عدوانهم على تظاهرتنا

السلمية. الاقتراح الثاني طرح نفسه على المجتمعين، وهو كيفية توفير هذا العدد الكبير من الأعمدة الخشبية لهذا الغرض خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الأربع عشرة ساعة. كان الجواب عند الطالب عصام أرشد العمري، الذي أخبرنا أنه يمتلك عددًا كبيرًا من الأوتاد الخشبية المعدة لتسييج مزرعتهم، وسوف يبادر إلى نقلها إلى مطعم الكلية مساءً. حوالى الساعة الثامنة صباحًا كان المسرح الرئيسي للعمليات هو الشارع المقابل لبناية الطب العدلي الواقع خلف قاعة الاحتفالات في الكلية الطبية.

تجمع في الصباح الباكر مئات من الطلبة يحملون الشعارات استعدادًا لتأبين الشهيد. كان المعهد مطوقًا بأعداد كبيرة من رجال الشرطة والأمن المسلحين، بينما الطلبة يهتفون ويطالبون بتسلم جثة القتيل، الذي قُتل أمام كلية الصيدلة من أجل تشييعه. خلال هذه الفترة المتأزمة والمشحونة بالعواطف، ظهر نقيب في الشرطة عند باب المعهد قائلًا: يا أولادي اسمحوا لي بخمس دقائق لأتصل تلفونيًا بمدير الشرطة العام لكي أتلقى منه الأوامر لحماية مسيرتكم السلمية، بعد دقائق عاد ثانيةً ليعطي الأمر بتفريقنا على الفور. لم يستجب الطلبة لندائه وبدأت المعركة الحامية بين الشرطة والطلبة، وانقلبت الشعارات المحمولة إلى عصي غليظة بأيدي المتظاهرين. استمرت المعركة بين كرٍّ وفرٍّ إلى أن وصل رتل كبير من الطلبة قادمًا من المعاهد والكليات لنجدتنا وفك الحصار عنا، وهكذا حسمت

المعركة في النهاية لمصلحة الطلبة. عندما أيقنا أن الحصول على جثة القتيل مستحيلة، ظهرت الجنازة الرمزية لتتلقفها الأذرع وترفعها عاليًا ملهبةً حماسة الطلبة وصراخهم مما أرهبَ قوات الشرطة التي تراجعت محتميةً في داخل مبنى المعهد. وما أن وصلت المسيرة إلى باب المعظّم في طريقها إلى شارع الرشيد، حتى تضخم عدد الجماهير بصورة مذهلة، بينما ازداد عدد الشهداء الذين تحدوا الشرطة في مناطق أخرى في جانب الكرخ والرصافة، لكي يلتحقوا بمسيرتنا الرئيسية المتوجهة إلى شارع الرشيد. وبهذه المسيرة الجماهيرية المنقطعة النظير والتضحيات الكبيرة لطلبة المعاهد والكليات والمدارس، أُجبر القصر على قبول استقالة رئيس الوزراء صالح جبر وإلغاء معاهدة «بورتسموث»، وتعيين رئيس وزراء جديد هو محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان في تلك الفترة. إنه فيلم واقعي ودراماتيكي في آن واحد إني تقصدت ذكر أسماء زملائي الأبطال المنسيين، الذين لعبوا دورًا وطنيًا وتاريخيًا في انتفاضة سلمية فريدة في نوعها. وقبل أن أغلق ملف هذه القصة، أذكر أن جعفر الجواهري شقيق الشاعر الكبير الجواهري، قُتل في إحدى التظاهرات، وبهذه المناسبة أتحفنا بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أتعلمُ أم أنتَ لا تعلمُ ... بأنّ دماءَ الشهيد فمُ
فمٌ ليس كالمدعي قوله ... وليس بآخر يستفهمُ

الالتحاق بأول
مخيم لطلبة الجامعات

في أواخر الأربعينيات، حاولت الحكومة التخطيط لإبعاد الطلبة بكل الوسائل عن الجو السياسي المحتقن في بغداد. لذا فكرت وزارة المعارف (المسؤوله أيضًا عن الكليات والمعاهد العالية لعدم وجود كيان مستقل لجامعة بغداد) في تنظيم مخيم طُلابي في شمال العراق أثناء عطلة الصيف دعت إليه طلبة الكليات للالتحاق به. كان الملتحقون في كليتنا حوالى ثلاثين طالبًا ومن صفنا حوالى ثمانية فقط. كان المشرف على المخيم شخصًا قوميًا ذا ميول نازية قديمة (لا أتذكر اسمه بالضبط). أُختير هذا الشخص لأنه مشهور بشدته كي يحافظ على النظام والانضباط داخل المخيم. ركبنا القطار المتوجه من بغداد مساءً فوصلنا إلى مدينة (كركوك) صباح اليوم التالي. وبعد راحة قصيرة توجهنا إلى مدينة أربيل بشاحنات مكشوفة ونحن وقوف على أقدامنا وشمس تموز الساطعة فوق رؤوسنا. وبعد أن تناولنا وجبة غداء سريعة في إحدى مدارس «أربيل»، رحلنا منها في الشاحنات المزعجة نفسها

إلى منطقة (عين ترمة) الواقعة على سفح جبل «سفين» المشهور في مدينة (شقلاوة). وبينما كانت الشمس تتجه نحو الغروب، صدرت الأوامر إلينا من قبل آمر المعسكر بنصب الخيم على الفور قبل أن يهبط الظلام. وبينما كنا نقوم بهذا الواجب، رغم أننا في أشد حالات الإرهاق والتعب، وإذا بأصواتٍ تعلو من هنا وهناك من قبل طلاب لسعتهم العقارب الجبلية، لأننا عملنا على إثارتها عند الحفر في جحورها الآمنة وهي ترقد على جبلها الهادىء والجميل. يجب أن أعترف هنا بأني، وإنْ أتميز ببعض الشجاعة أحيانًا، جبانٌ جدًا أمام العقارب!! لذلك اندفعت إلى عين ترمة وغسلت وجهي وشربتُ من مائها العذب وتناولت قطعة خبز مع الجبن، قبل أن أتوجه للنوم مبكرًا في وسط الخيمة المخصصة لنا (لخمسة طلاب). ما كاد يمر ربع ساعة حتى انهالت على رأسي وجسمي الوسائد (المخدات المخصصة للنوم) من قبل زُملائي وعلى رأسهم مهدي السمّاك الذي صاح فيّ مستهزئًا: «مهدي تريد «تعبرها» علينا لتنام في منطقة محصّنة وسط الخيمة بعيدًا عن العقارب، وتدع لنا الأجنحة الخطرة على جوانب الخيمة!!»

قلت له: ما العمل إذًا؟

أجاب: القرعة!

تمت القرعة. وكان نصيبي الجانب الأيمن من ساحة

المعركة. نمتُ في هذا المكان وكان نومي قلقًا وأحلامي مزعجة في تلك الليلة. عندما بزغ الفجر حمدت الله على سلامتي ونهضت مبكرًا من الفراش، وما أن حاولت رفع الوسادة وإذ بعقربٍ كبيرة سوداء اللون مستلقية تحت وسادتي.

اتفقنا أنا وصديقي محمد جابر محسن أن نستأجر تختين خشبيين من أحد مقاهي البلدة لمدة شهر. تمكنا من ذلك بعد أن دفعنا لصاحب المقهى نصف دينار مع أجرة النقل على بغل إلى مخيمنا. شددنا التختين بالحبال فأصبح سريرًا كبير الحجم وضعناه أمام خيمتنا. نمنا بعدئذ نومًا عميقًا هادئًا حتى الصباح. كانت الخيمة المجاورة لنا مخصصة لرفاقنا من الطائفة اليهودية. تقدم منهم الطالب «جيجي» يستفسر عن موضوع معدل أسعار استئجار التخوت في البلد بالمفرد والجملة وغيرها من الأسئلة التفصيلية الأخرى! وقبل غروب الشمس شاهدنا جيجي وأحد رفاقه يقلدانا بالضبط وعند وصوله قال لي ممتعضًا: مهدي، الأسعار ارتفعت وقد دفعنا 650 فلسًا بدل نصف دينار! لكن محمد جابر أخذ يداعبه قائلًا: «تعرف جيجي إحنا متندمين لهذه الشروة، لأن الأكراد المحليين أخبرونا أن العقارب الجبلية متعودة التسلق، فالنائم على السرير المرتفع عن الأرض، أكثر عرضة من الأشخاص الذين ينامون على الأرض!!»

وفي صباح اليوم التالي، أخذ جيجي مداعبة محمد جابر مأخذ الجد، فذهبا لشراء ثمان كؤوس معدنية ووضعا كأسًا ملأى بالماء تحت كل قائمة من قوائم هذه التخوت، لكي تغرق العقارب عند محاولتها التسلق إلى أعلى السرير. وعلمنا أنهما دفعا دينارًا ثمن هذه الكؤوس (يعني البطانة أغلى من الوجه).

خطر ثانٍ اجتاح المخيم، وهو وباء الملاريا الذي أصاب عددًا لا يستهان به من الطلاب، على الرغم من تناولهم الحبوب المخصّصة للوقاية منه، وقد توفي أحد طلبة كلية الحقوق من عائلة الشماع المشهورة في بغداد بهذا المرض.

كان الطعام يقدم إلينا بصحون كبيرة لكل مجموعة من الطلاب. لاحظنا أن أحد الزملاء من مجموعتنا يلتهم أكثر من حصته المقررة من اللحم المقدم لنا في وجبة الغداء اليومية. حذرناه مرات عديدة ولكن بدون جدوى. اتصلنا بالدكتور حسن الجرجفجي الذي كان طبيب المعسكر، والمعروف أنه يحب المداعبة، وأخبرناه بهذه المشكلة الغذائية وطلبنا منه أن يدلّنا على طريق للإيقاع به. قدّم لنا مسحوقًا مسهّلًا عديم اللون والرائحة لرشّه على قطع اللحم أمام مقعده. أكل ذلك اليوم ما طاب له، وبعد أن شرب قدح الشاي، لاحظنا أن المغص المعوي الذي يسببه الإسهال قد بدأ. ترك صاحبنا الخيمة قائلًا لنا: عندي مغص

وسأحاول تناول حبة دواء من داخل الخيمة! لكننا شاهدناه متجهًا نحو المراحيض. وبعد خمس دقائق، تركنا مرة ثانية بسرعة دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة نحو المكان نفسه. وبعد عشر دقائق، اعترف بأن عنده إسهالًا وسيذهب إلى الخيمة ليستريح. هذه المرة قصدناه ضاحكين وقال له أحدنا: شلون أمورك! أجاب على الفور: لعنة الله عليكم سويتوه بيّ (اعملتوه معي). فأجابه محمد جابر ضكاحًا: من الآن فصاعدًا يجب أن تكتفي بحصتك من قطع اللحم (قطعة كبيرة وقطعة صغيرة). أنت ما تعرف أننا اشتراكيون في كل شيء حتى في أكل اللحوم!.

تعتبر هذه السفرة بالنسبة إلي فريدة ومثيرة. فهناك كثير من الحوادث والمفارقات الغريبة والصعوبات التي حدثت، ولكن تمتعنا بها وتحديناها مع زملائي الأعزاء. ما رويته كان النزر اليسير الذي أتذكره أو بالإمكان سرده. فمغامرات الشباب ليس لها حدود! شكرًا لوزارة المعارف الجليلة في العهد الملكي (البائد أو الزاهر!). أترك ذلك الخيار للقارئ الكريم.

التخرج من الكلية الطبية
والتدرج في المهنة الطبية

الامتحان النهائي
والتخرج في الكلية الطبية

الصف المنتهي (السادس) من السنين التي يصعب اجتيازها، لأن الأساتذة عادةً يتشددون في الامتحان النهائي سواء التحريري منه أو الشفهي أو السريري. البريطانيون الذين وضعوا اللّبنة الأولى لهذه الكلية، دهاة حتى في موضوع المعاهد العلمية التي يؤسسونها ويديرونها، فترى الدخول إليها صعبًا والطالب الذي يرسب في السنة الأولى يُطرد. وفي السنة الأخيرة قد يراوح محله عدة سنين قبل التخرج إذا كان لا يستحق أن يصبح طبيبًا. كان معنا في الصف المنتهي أربعة من هؤلاء الطلاب المخضرمين، وأحدهم قدّم الامتحان معنا للمرة الخامسة، فتأمل حالنا!!

تركت الرياضة والسياسة والحياة الاجتماعية جانبًا، وركزت كل جهودي من أجل اجتياز هذه المرحلة الصعبة. كانت النتيجة طيبة، إذ نجحت في الدور الأول مع 25 من زملائي علمًا أن عدد الطلاب الذين تقدموا للامتحان النهائي كان ستين طالبًا. كما نجح عدد مماثل في الدور

الثاني والباقون يعيدون السنة الثانية. بعد التخرج التحقت بدورة كلية الاحتياط لمدة شهرين قبل أن أتخرج كطبيب عسكري برتبة نقيب. يبدأ الدوام في هذه الدورة في السادسة صباحًا، لذلك كان عليَّ أن أنهض من الفراش في الساعة الرابعة صباحًا لكي أكون حاضرًا قبل الوقت المعين استعدادًا للتعداد والاستعراض أمام الآمر قبل بدء التدريب. كان الضابط المسؤول عن دورة الاحتياط الرائد (الرئيس الأول) عسكر محمود (اسم على مسمى) جدّيًا، شديدًا وعسكريًا بكل معنى الكلمة. لكنه كان يتكلم بلكنة أعتقد أنها كردية، فكان من الطبيعي أن مثل هذا الضابط لن يستطيع السيطرة علينا فأُبدل بضابط آخر من الرتبة نفسها، وكان اسمه حسن عبود (والد جرّاح الأعصاب المشهور سمير) الذي كان كيّسًا وقد تمكن من كسب ثقتنا حتى نهاية الدورة. من المصادفات أن أكون الطالب الأقدم (المراقب) للدورة! كيف حصل ذلك؟ لا أعلم حتى الآن لأني لم أكن عند التخرج من الأوائل في الصف واسمي يبتدئ بحرف (الميم). على كل حال ما وقع شيء جميل! ولم ألحّ في الاستفسار عن ذلك، إذ يُقال في الجيش: (نفّذ ثم اعترض). وخاصة إذا كان الأمر في مصلحتي، فمراقب الدورة يتقدم المتدربين من أطباء وصيادلة وقيادتهم للمسيرة الصباحية للتدريب والاستعراض. كما له الحق في الجلوس في الكرسي الأمامي بجانب السائق إن لم يكن

هناك ضابط معنا. امتيازات لطيفة لا اعتراض عليها!!

انتهت الدورة وتخرجنا برتبة نقيب. وفي الأشهر الأولى كان يعجبني السير في الشوارع العامة والأسواق، حيث تنهال عليَّ التحيات العسكرية المحترمة من أفراد الشرطة والجيش الأبرار! والجدير ذكره أن الأخ «عزت مصطفى» وزير الصحة كان أحد طلاب دورتنا الخالدة في ذاكرتي وبكل تفاصيلها!

توزيعنا على المستشفيات والمراكز الطبية العسكرية

تم التوزيع بطريقة نزيهة ومكشوفة، فالأطباء الذين يرومون التعيين في بغداد أو في مراكز المدن الكبرى عليهم قبول مبدأ القرعة ومن يفشل يعين في المناطق النائية. أما بالنسبة إلى الذين يطلبون التعيين خارج نطاق هذه المدن الكبيرة فيتمكن الطبيب أن يلتحق بأي منها من دون القرعة، كما حدث عندما اخترت «معسكر المسيب» الذي يبعدُ عن بغداد حوالى الساعة بالسيارة. يتمركز في هذا المعسكر اللواء الأول من الفرقة الأولى(*). كان آمر اللواء «نجيب الربيعي». يتكون اللواء من ثلاثة أفواج مشاة، أحدها كان بقيادة العقيد الركن عبد الكريم قاسم، كما كان آمر سرية الهندسة فيه الرئيس الأول (الرائد) رفعت الحاج سري. بعد

(*) كان الجيش العراقي آنذاك يتكون من ثلاث فرق فقط. الأولى في الديوانية، والثانية في كركوك، والثالثة في مدينة بعقوبة.

أن مكثت مدة قصيرة في المسيب، التحقت بهذا اللواء كتيبة الصحراء الأولى وكان مركزها في معسكر المحاويل، الكائن قرب مدينة «المحاويل» التابعة لمحافظة الحلة. صدر الأمر بنقلي إلى هذا المعسكر الجديد كطبيب موقع مستقل عن طبابة اللواء الموجود في المسيب. كنت في البداية ممتعضًا بعض الشيء من هذا التعيين لبُعد المسافة عن بغداد، ولكن ظهر أن هناك بعض الامتيازات فكنت الآمر الطبي الوحيد في هذا المعسكر والمسؤول عن علاج جميع الضباط والمراتب وعوائل الضباط الساكنة في هذا المعسكر. كان العقيد الركن عبد الرزاق حمودي (أبو دريد) هو آمر المعسكر، وكان ضابطًا قديرًا ومحترمًا كما كانت معاملته لي أقل شدة وصرامة، لكوني طبيبًا وضابط احتياط موقتًا. لاحظت في تلك الفترة أن رواتب الضباط متدنية وحياتهم المهنية خشنة وصعبة، وأعتقد أن هذه الظاهرة برزت بعد اشتراك ضباط الجيش الكبار بصورة فعالة في تأييد انقلاب رشيد عالي الكيلاني. فقد تقلصت بعد ذلك مباشرةً امتيازاتهم وزادت تدريباتهم وتمارينهم العسكرية وأُبعدت معسكراتهم الدائمة عن مراكز المدن الرئيسية.

فتحت عيادة لي في مركز ناحية المحاويل التي تبعد حوالى أربعة كيلومترات عن المعسكر وقد استخدمتها بمثابة مسكن في الوقت نفسه. كنت الطبيب الوحيد في المدينة وكان يحق لي شراء الأدوية من المذاخر الطبية في بغداد وبيعها للمرضى. وهكذا أصبحت أُمارس مهن الطبابة

والصيدلة والتمريض في آن واحد كانت الهدايا العينية التي يحملها إليَّ الريفيون عند شفائهم سخية ومتنوعة ومنها البطيخ والرقي والعنب والدجاج والبيض وغيرها. في الحقيقة كنت أفرح عند تسلمها أكثر من النقود! وقد كنت أستهلك قسمًا قليلًا منها والقسم الأكبر أحمله معي عند عودتي الأسبوعية إلى بغداد، حيث تكون هذه الهدايا مصدر سرور الأهل وخصوصًا الوالدة التي توزع قسمًا كبيرًا منها على الجيران.

الحياة الاجتماعية في مدينة المحاويل محدودة جدًا لأنها بلدة صغيرة. كنت أرتاد نادي الموظفين أحيانًا في المساء وألتقي مدير الناحية «طه»، وهو من أبناء البصرة وكان لطيف المعشر ويحب الطرب والسهر. كان ترددي إلى مدينة الحلّة القريبة منا محدودًا مرة أو مرتين في الأسبوع، بصحبة آمر المعسكر وبسيارته الستيشن العسكرية الواسعة، وأحيانًا بمعية آمر البطرية الرئيس الأول «حميد نعمان» وبسيارته الجيب العسكرية الصغيرة، وهو أخو مدير الشرطة «شاكر نعمان» صديق عمي أبي طارق.

عندما اشتركت كتيبتنا مع جحفل اللواء الأول في التدريب الإجمالي السنوي، سنحت لي فرصة نادرة للتمتع بالحياة العسكرية الخشنة والسكن في الخيم والتعرف إلى مجموعة كبيرة من الضباط المرموقين، ومنهم من لعب دورًا هامًا في تفجير وقيادة ثورة 14 تموز! منهم العقيد الركن

عبد الكريم قاسم آمر الفوج الثالث وآمر سرية الهندسة الرئيس الأول رفعت الحاج سري الذي أصبح صديقًا لي، ومقر سريته المكان المفضل الذي كنت أتردد إليه مساءً للراحة وتناول الشاي والمرطبات. والغريب أن جميع الضباط تقريبًا يرددون بإعجاب قصص بطولة ضابطين فقط وهما (عبد الكريم قاسم ورفعت الحاج سري) خلال الحرب التي دارت رحاها بين الجيش العراقي و الجيش الإسرائيلي في فلسطين.

قبل أن أسدل الستار على هذه الفترة الوجيزة من حياتي، لا بدّ أن اذكر كم تلذذت بمحاسنها واكتسبت خبرة جديدة، كما سررت بالفرصة التي أُتيحت لي للتعرف على عدد كبير من الضباط الطيبين الذين فتحوا لي قلوبهم وعقولهم طوال هذه الفترة القصيرة التي قضيتها معهم.

كان هناك حادث مؤلم مرتبط بوجودي في مدينة المحاويل! في أحد أيام الصيف الحارة وأنا متمدد على السرير بعد وجبة الغداء في البيت، وإذ بجرس الدار يدق. وعندما ذهبت لأفتح الباب فوجئت بأن الضيف هو صديقي القديم الدكتور «رشيد حميد النجار». بعد الاعتذار عن الزيارة المفاجئة والتوقيت غير المناسب، استطرد بالحديث قبل أن يتناول القهوة المقدمة إليه قائلًا: مهدي جئت لآخذ رأيك في موضوع مهم وعاجل بالنسبة إلي، فغدًا سيتم توزيع أفراد دورتنا على المراكز الطبية العسكرية بعد

تسريحكم. وقد سمعت من الزملاء أنك سعيد باختيارك هذا الموقع، فما هو رأيك لو طلبت ذلك المحل بدون اللجوء إلى القرعة؟ أجبته على الفور: رشيد سوف لن تأسف على ذلك لأنك ستكون طبيب موقع والطبيب الوحيد في مدينة المحاويل. وبإمكانك أن تستأجر داري لتكون عيادة ومسكنًا لك في الوقت نفسه، العيادة شغالة والمرضى في المدينة اعتادوا زيارتها. وبالمناسبة رويت له نكتة قالها لي أحد مرضاي البسطاء والمعجبين بتعاملي معهم عندما سمع بانتقالي إلى المستشفيات المدنية وخلع ملابسي العسكرية إذ قال: ليش دكتور تتركنا وتخلع ملابسك العسكرية ونجماتك الذهبية! إنك الآن حاكم حكيم!! وبعد أن شرب القهوة تركني شاكرًا لهذه المعلومات. بعد أشهر قليلة سمعت الخبر الذي أحزنني كثيرًا، وهو أن الدكتور النجار تعرض لحادث غير سار بينما كان يسبح مع بعض أخوانه الضباط على ساحل النهر في «سدة الهندية» القريبة من معسكر المحاويل. على أثر هذا الحادث نقل إلى المستشفى الملكي في بغداد. فذهبت في اليوم نفسه إلى المستشفى لتقصي الخبر، فقيل لي أنه كان يحاول القفز على رأسه في الماء (دايف) في منطقة غير عميقة فانكسرت بعض فقرات رقبته، التي بدورها ضغطت على النخاع الشوكي الذي تضرر بسبب ذلك. دخلت الغرفة المخصصة له فشاهدته متمددًا على السرير بدون حراك ما عدا عضلات الوجه. لم يحاول أن يتكلم

ولكن ظهرت على وجهه ابتسامة باهتة وبعد أن شاهد الدموع تسقط على وجهي شعرت كأنه أراد أن يقول لي:

مهدي هذا موصوجك (ليس ذنبك) هذا حظّي!

يُذكر أن والده حميد النجار الذي كان يحبه كثيرًا وينتظر زواجه ورؤية أولاده، قد انهار وغدا في أشد حالات الحزن والمرارة. وقد وارى رفاته في النجف الأشرف في مقبرة كبيرة جدًا فيها جميع مرافق الراحة. مثل هذه المقابر لا يتحمل نفقات إنشائها واستمرارها إلا القليل من العوائل الغنية البارزة سواء أكانوا من العراق أم من باقي أنحاء العالم.

فترة جديدة لممارسة وتطوير مهنتي الطبية
الإقامة والتدرج الطبي في العراق

إن التدرج الطبي في وزارة الصحة واجب على كل طبيب أن يجتازه قبل أن يؤهل كطبيب ممارس بإمكانه الاشتغال في المستشفيات والعيادات الخاصة. هذا يتم بعد أن ينهي الطبيب خدمته العسكرية ويقضي بعد ذلك سنة على الأقل مقيمًا في أحد المستشفيات الرئيسة في بغداد أو في مراكز المحافظات الأخرى. ويتم التوزيع وفق النهج السابق تقريبًا في الخدمة العسكرية. فالأطباء الذين يرومون الإقامة في مدينة بغداد والمدن الرئيسية الأخرى عليهم التزام القرعة. غير أنني اخترت الخدمة في المستشفى الملكي الكائن في مدينة الديوانية التي عُيّنت فيها سنة 1952. وثمة ثلاثة من الزملاء الأطباء في دورتنا قد استثنوا من مبدأ القرعة وعُيّنوا في بغداد بعد شهر من توزيعنا وهم الأطباء التالية أسماؤهم (مؤيد مصطفى العمري، علي حسين النقيب وعبد القادر الطالباني (واحد سني وآخر شيعي والثالث كردي). لكن الغريب في الأمر، أن ذلك لم يثر أية ضجة ولم يتصل أحد من دورتنا بالصحف المحلية أو بالمعارضة

لإثارة هذا الموضوع الغريب وغير المألوف. على أن السبب قد يكون أن النشطاء منا (وأنا منهم) تغاضوا عن ذلك بسبب الصداقات والأواصر المتينة التي تربطنا بهم!!

تبعدُ الديوانية عن بغداد حوالى أربع ساعات بالسيارة، وتقع مدينة الحلّة في منتصف الطريق تقريبًا. والطريق لها غير معبّد. وهي مدينة صغيرة والخدمات فيها بدائية والمستشفى الملكي قديم، ويقع على شاطىء النهر بالقرب من دار الضيافة. وقد شُيد حديثًا مستشفى خارج البلدة للأمراض الصدرية، وكانت طبيبة كبيرة في السن ألمانية الجنسية تقوم بالإشراف عليه. كان مقر الفرقة الأولى للجيش العراقي يقع على ضواحي المدينة، وكنا نذهب إلى النادي العسكري للترفيه أحيانًا. تعجبت من الفرق الشاسع جدًا بين العاصمة بغداد وهذه المدن الرئيسية التي شاهدتها كالحلّة والديوانية في كل النواحي تقريبًا. فمثلًا يوجد عشرة أطباء فقط في مركز المدينة ستة منهم يعملون داخل المستشفى وأربعة غير موظفين يشتغلون في عياداتهم الخاصة. كما هناك في المحافظة طبيب أسنان واحد اسمه غانم رسام كنت أشاهده يتسكعُ هنا وهناك في المدينة قائلًا لي مرة: ماكو شغل لي في هذه المدينة والحلاقون هم المنافسون لي وأمورهم جيدة!!

كان مدير المستشفى والقائم بأعمال رئيس صحة المحافظة هو الدكتور شاكر توفيق. شخص ذكي جدًا صغير

الحجم ورغم ضعف سمعه كان طبيبًا وإداريًا ناجحًا. وكان جراح المستشفى طبيب نمساوي اسمه «أوتو»، وقد علمت أنه شارك كطبيب عسكري في الحرب العالمية الثانية مع القوات الألمانية على الجبهة الشرقية، مستواه العلمي متوسط ومزاجه حاد، وقد تزوج بعد فترة وجيزة رئيسة ممرضات المستشفى (غزالة). كانت العيادة الخارجية مزدحمة بدرجة هائلة جدًا، إذ كان على الطبيب أن يعالج حوالى 300 ـ 400 مريض خلال أربع ساعات. أي يخصصُ معدل دقيقة واحدة لكل مريض بما في ذلك تحديد تاريخ المرض والفحص وإعطاء الدواء. فتأمل المستوى الطبي هناك في تلك الفترة!! ذكر لنا الدكتور شاكر ضاحكًا هذا الحادث الذي وقع قبل أسابيع في العيادة الخارجية. وهو أن أحد الأطباء كان يحاول اختزال الوقت عند عيادة المرضى إذ يبدأ بسؤال واحد وبسرعة: شو المشكلة؟ أجابت المريضة التي أمامه: عيني قلبي يوجعني! وبالسرعة نفسها أعطاها وصفة تحتوي على قطرة عين حمراء (تسمى بروتركول) ولما ذهبت إلى الصيدلية وتسلمت القطرة الحمراء بادرت الصيدلي قائلة: هذه قطرة للعيون وآني قلبي يوجعني! أجابها الصيدلي: إذهبي ثانيةً إلى الطبيب واشرحي له المشكلة! فعادت إليه ثانية وبعد أن تفهم الخطأ قال لها: إحنا مشغولين جدًا وليس عندنا الوقت الكافي، لذلك (نحن نلتزم بعلاج الكلمة الأولى التي تصدر من فم المريض،

كان عليك أن تقولي قلبي يوجعني فقط، بدل عيني قلبي يوجعني! (كلمة عيني عادة تُذكر مقدمًا لكسب عطف الطبيب على حالة المريض) وأخيرًا أعطاها وصفة بديلة وبدون فحص طبعًا، وكانت جرعة طاردة للأرياح (نسمّيها طبيًا كارمنتف) لعلاج قلب هذه المسكينة!.

كان طبيب الأشعة في المستشفى من إخواننا اليهود ومن عائلة خزام المشهورة. وهو من القلة التي بقيت في العراق بعد إسقاط الجنسية والهجرة الجماعية إلى إسرائيل. كان هذا الطبيب يتردد إلى دار الضيافة التي يلتقي فيها الأطباء والضباط والموظفون المدنيون من الدوائر الأخرى. كان هذا مشاكسًا إلى حد الإزعاج ولكن لم ينبر له أحد لإيقافه عند حده، لأنه كان يحظى بمعرفة المتصرف (المحافظ) ويشرف على علاج زوجته. فقمت يومًا بدور البطل وحذرته بأن لا يعودَ ثانية إلا بعد أن يحسن سلوكه. قيل أنه أخبر المتصرف بذلك وأرسل هذا بدوره كتابًا سريًا إلى وزارة الصحة يطلبُ فيه نقلي. لم أهتم بذلك ما دمت أصبحت البطل بين زملائي!!

لقاء غير متوقع
مع الدكتور الأميركي «برايس»

بعد أيام من هذا الحادث وبينما أنا جالس في غرفة رئيس الصحة مع بعض الأطباء، وإذ بشخص أجنبي يدخل الغرفة ويقدم نفسه بأنه الدكتور «برايس» الأميركي الجنسية وممثل النقطة الرابعة في العراق وله مكتب دائم بوزارة الصحة في بغداد. اعتذر المومى إليه وقال إن سيارته المتوجهة إلى مركز الأمومة والطفولة الكائن في مدينة (السماوة) قد أصيبت بعطبٍ بينما كانت تجتاز مدينتكم فرأيت من المناسب أن أغتنم الفرصة لزيارة مستشفاكم وأتعرف إلى الأطباء الموجودين فيها. كان الأطباء منكمشين وجلهم لا يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة، لذلك وجه أكثر الأسئلة لي. وسألني إن كنت أرغب في الاختصاص في أحد فروع الطب في أميركا، فقلت له: طبعًا أحبذ ذلك وعندي رغبة في التخصص في طب الأطفال! دوّن الدكتور برايس اسمي والمعلومات التي طلبها مني بالإضافة إلى عنواني في بغداد. وبعد ساعة تقريبًا غادرنا بعد شرب القهوة ولم أشاهده مرة أخرى إلى حين رجوعي من الولايات المتحدة.

وهكذا يلعب القدر دوره ثانيةً. في الأولى انحرف مسار العمة أم رشيد التي نزلت إلى مسناية بيت النواب وهي في طريقها إلى الكاظمية لتنقذ حياتي. وهنا أميركي اسمه برايس يعرج على مستشفى الديوانية وهو في طريقه لزيارة مدينة السماوة، ليرسم الطريق لي بأن أكون طبيب أطفال طوال حياتي!

الحقيقة، لم أكن مستعدًا نفسيًا ولا مخططًا لموضوع السفر والاختصاص خارج العراق في تلك الفترة، التي كنت أجد أن المرضى المحليين يثقون بي يومًا بعد يوم، والإدارة منسجمة معي تنفذ جميع طلباتي، وفي الوقت نفسه كانت الوالدة والأخوات أصبحن أكثر تعلقًا بي خصوصًا بعد أن تخرجت طبيبًا.

بعد ستة أسابيع من زيارة الدكتور برايس لنا، تسلمت بالبريد الجوي رسالة من مستشفى بالتيمور في الولايات المتحدة، تبدي موافقتها على تعييني كطبيب مقيم في قسم الأطفال. لا بدّ من ذكر ظاهرة جديدة في العراق وهي أن الولايات المتحدة الأميركية، بدأت تنافس بريطانيا في العراق سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا. إذ إنها أرسلت لأول مرة عددًا من الضباط العسكريين للتدريب في معاهدها العسكرية وتمنح التلاميذ مقاعد دراسية في جامعاتها. وسمعت أنها منحت بدون ثمن (هدية) عددًا من الدبابات الأميركية الحديثة الثقيلة إلى الجيش العراقي، وكان الدكتور فاضل الجمالي السياسي المفضل عندهم!

لا بطولة بدون تضحية

بعد حوالى ثلاثة أشهر من الحادث أو المواجهة لي مع الدكتور خزام في دار الضيافة، تسلمت إدارة المستشفى أمر نقلي إلى مستشفى الكوت الملكي. على أثر ذلك أقام الزملاء والأصدقاء حفلة عشاء لي في دار الضيافة قبل أن أتركَ المدينة. علمًا أن مجرد إقامتها كان يعتبر تحديًا لمتصرف اللواء (المحافظ). قبل أن أغادرَ المستشفى، مررتُ على رئيس الصحة الدكتور شاكر توفيق شاكرًا ومودعًا. كان هو متأثرًا لمغادرتي ومعرفته تفاصيل المشادة التي حدثت بيني وبين طبيب الأشعة. ولتلطيف الجو وإقحام شخصية المتصرف في قصة قديمة وظريفة تدعو للضحك وعدم أخذ الأمور مأخذ الجد قال: يقال أن أحد المتصرفين القُدامى عندما وصل إلى مركز مدينة الديوانية لأول مرة، حاول رئيس البلدية المشهور بالذكاء وسرعة البديهة أن يقيم له حفلة تكريم وتعارف بحضور شخصيات المدينة ووجهائها. وقبل أن يلقي الكلمة الترحيبية بمقدمه، أرسل كاتب البلدية إلى السيد المتصرف سائلًا عن اسم المحروس ولده فكان الجواب: عمر. فلما سمع ذلك رئيس

البلدية أرسله ثانيةً إلى المتصرف مستفسرًا إياه عن اسم ابنته فكان جوابه: عائشة!

لما سمع رئيس البلدية ذلك، ضحك قائلًا بصوت خافت لمن حوله: هاي الحكومة لازم دازتنا (أرسلت إلينا) الشّمر (اسم قاتل الإمام الحسين) فانفجرت ضاحكًا قبلَ أن أودعه مغادرًا غرفته.

التحقت ليوم واحد بمستشفى الكوت قبل أن أقدم استقالتي من الخدمة تاركًا المدينة في طريقي ثانيةً إلى بغداد. في هذه الفترة، كنت أكثر تصميمًا من أي وقت مضى على الالتحاق بمستشفى بالتيمور في أميركا للتخصص في أمراض الأطفال. المشكلة التي واجهتني في تلك الفترة هي كيفية إقناع وزير الصحة بإتاحة الفرصة لي للتخصص في هذا الفرع المهم وفي مستشفى رفيع المستوى، ويلتحق كادره الطبي بجامعة «جون هوبكنز» الأميركية ذات السمعة العالمية. الطريق الوحيد هو إقناع وزير الصحة الذي هو «محمد حسن سلمان» المتشدد أصلًا بعدم السماح للأطباء بالسفر خارج العراق قبل أن يكملوا تدرجهم الطبي. لكن عمي أبا طارق الذي له معرفة وصداقة قديمة معه، تمكن من أخذ موعد لزيارته وعرض موضوع سفري له بالتفصيل وأنا جالس بجانبه في أثناء المقابلة. كانت إجابته: أبو طارق عندنا هنا أمراض أكثر من أميركا وبعضها غير موجود فيها مثل الجدري والملاريا والزحار وغيرها! حجة هزيلة لم يقتنع بها حتى العم، البعيد عن عالم الطب! وبينما كنت

أنتظر الفرج، عملت على تهيئة نفسي للسفر والمعيشة في اميركا فتعلمت الكتابة على الآلة الطابعة باللغة الإنكليزية، وبدأت أتعلم الرقص الغربي ملتحقًا بالمدرسة الوحيدة التي يديرها (الياس بحر) والواقعة خلف سينما غازي في الباب الشرقي. بعد شهر أصبحت أُجيدُ رقص التانغو والرمبا والسامبا الخ ... لكن المزعج في هذه المدرسة أن التدريب يتم بين رفيقين وليس بن رفيق ورفيقة (يعني زلم بزلم)! وعلى ذكر السيد الياس بحر، هناك قصة ظريفة وقعت له في أحد الأيام إذ قدّم شكوى مدنية ضد أحد الأشخاص وكان الحاكم محافظًا ومعروفًا بالشدّة اسمه (س) وقد سأله في مطلع الاستجواب عن اسمه ومهنته فأجاب بأنه مدرس رقص. لكن الحاكم المحافظ لم يعجبه هذا اللقب المحترم فأمر الكاتب: سجله شعار! (تقليلًا واستهزاءً بمهنته).

بعد أربعة أو خمسة أشهر جاء الفرجُ. تبدلت الوزارة وأصبح الدكتور عبد الأمير علاوي أستاذ طب الأطفال وزيرًا للصحة. ولما عُرض عليه الأمر سمح لي ولزميلي الدكتور شاكر القطيفي بالسفر إلى خارج العراق لنيل الاختصاص في فروع الطب المختلفة التي يحتاج إليها البلد. وهذا هو ما حدث إذ خدمت طب الأطفال بصفة اختصاصي واستشاري وكباحث أيضًا لمدة نصف قرن. ولا يفوتني أن أذكر في هذه المناسبة، أن الأطباء الأساتذة العراقيين المتميزين إبان دراستي في الكلية الطبية، كانوا

على مستوى عالٍ يقارب مستوى الأساتذة الأجانب، ومنهم الدكتور هاشم الوتري والدكتور كمال السامرائي والدكتور عبد الأمير علاوي.

تبرع عمي بأجور السفر إلى أميركا عن طريق البر والبحر وكانت كلفتها 100 دينار (330 دولارًا أميركيًا). تمّ الحجز عن طريق مكتب سفر صغير كائن في شارع الرشيد اسمه (أورينت تور) وقد وفر لي السفرة والحجوزات اللازمة بصورة تامة من بغداد حتى وصولي إلى ميناء نيويورك في الولايات المتحدة.

عندما اجتزت الحدود العراقية متوجهًا إلى دمشق بسيارة «نيرن» المشهورة، لاحظت الفارق الملموس بين القرويين السوريين والعراقيين على جانبي الحدود. فكان السوريون ينتعلون الأحذية، وملابس نسائهم أنظف وأكثر رونقًا من نظرائهن العراقيات. دمشق جوها أبرد وهي أيضًا أنظف من بغداد، ولأول مرة شاهدت النسوة هناك يجلسن بجانب الرجال في المقاهي والمطاعم العامة. بقيت ثلاثة أيام قبل أن أنتقل إلى مدينة بيروت التي كانت أكثر تطورًا في جميع النواحي. فالعمارات شاهقة وأكثر النساء سافرات والحياة الاجتماعية والترفيهية عالية المستوى. مكثت في بيروت أسبوعًا قبل أن أغادرها إلى ميناء «برنديزي» جنوب إيطاليا عن طريق البحر على متن الباخرة الإيطالية «إسبريا». ومن هذه المدينة ركبتُ القطار إلى روما ومن ثم باريس

وعبرنا بباخرة صغيرة مضيق «دوفر» حتى وصلت إلى لندن. استأجرت غرفة في غرب المدينة واستمتعت بالعالم الجديد مدة شهر، حيث الملاهي والمسارح ووسائل الترفيه الراقية متوافرة كما نشاهدها تقريبًا في صالات السينما في بغداد.

أردت التدرب على الرقص الغربي هذه المرة مع الجنس اللطيف البريطاني، وكان المكان المفضل هو قاعة الرقص المسماة (استوريا) الكائنة في غرب لندن. معظم رواد هذه الصالة من الشباب والشابات فترى الذكور يقفون على جانب والإناث يقفن على الجانب الآخر. تعلمت الطريقة المتبعة في الاتصال حيث ينظر الشاب نظرة خاصة مركزة على الفتاة التي يروم الرقص معها، فإذا أحس بالتجاوب في هذه العملية الفنية (ابتسامة أو رمشة عين!) في هذه الحالة يتقدم ليطلب مراقصتها. كنت شبه محظوظ في هذه العملية المعقدة، وبهذا تحسنت قابليتي للرقص والتخاطب باللغة الإنكليزية ومعرفة المجاملات الأساسية المتبعة عند الاجتماع والاتصال بالفتيات الغربيات. وهكذا لم تذهب جهود عمو (الياس بحر) في بغداد هباءً منثورًا! ولو أنه قصرَ في موضوع التزامه بمراقصة الرفاق بدل الرفيقات.

تم هذا عن طريق ميناء «بورت سموث» حيث كانت الباخرة العملاقة (كوين ميري) التي أصبحت فيما بعد متحفًا متنقلًا، هي المخصصة للإبحار ذلك اليوم. إنها مدينة عائمة على متنها ثلاثة آلاف مسافر وتحتوي على عدد كبير من المطاعم والبارات وصالات الرقص ناهيك عن الأسواق ومحلات التسلية الأخرى. بالرغم من شح ما تبقى لدي من الدولارات أغرتني رؤية جاكيت سبورت غالية الثمن معروضة للبيع في إحدى أسواق الباخرة، اشتريتها بسعر 40 دولارًا. كنت مطمئنًا إلى حد ما إلى وضعي المالي، لأني قد حولت من بغداد ألف دولار وهو كل ما وفرته بعد التخرج إلى أحد المصارف في مدينة نيويورك.

كان التفتيش الجمركي دقيقًا جدًا. شاهدت المسؤول يركز بصورة خاصة على السجادة الإيرانية الثمينة التي كنت أحملها، حيث أخذ يتفحصها بيده مليًا وقبل أن يقرر ما يجب أن أدفعه من ضريبة لإدخالها الولايات المتحدة، سحبت السجادة منه بقوة وغضب مصطنع قائلًا له: اسمح لي يا سيدي المفتش. لا تلمس هذه السجادة رجاءً لأنك غير مسلم وهي مخصصة للصلاة عليها! فتركها المفتش

معتذرًا ولم يفتش باقي الأمتعة. حملت أمتعتي الثقيلة إلى موقف سيارات الأجرة القريب من الميناء واتفقتُ مع سائق أن ينقلني إلى مبنى YMCA مقابل 15 دولارًا وهو كل ما أملك بدون استعمال العداد. واستغربت كيف أن السائق وافق على ذلك فورًا، فإذا بالمكان الذي أقصده لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن الميناء (طلع هو الغالب).

كانت العمارة شاهقةً وغرفتي الصغيرة في الطابق الخامس والأربعين، شاركني في المنام في الغرفة ضابط فليبيني يتكلم الإنكليزية بأقل طلاقة مني. بعد أن وضعت أمتعتي في الغرفة خرجت باحثًا عن المصرف الذي حولت إليه المبلغ وكان اسمه FIRST NATIONAL BANK ويبعد ساعة مشيًا على الأقدام من البناية التي أسكن فيها. بعد أن وصلت إلى المصرف المذكور وقدمت الحوالة والمستندات المطلوبة، اعتذروا عن صرف المبلغ لي لأنهم أرسلوه إلى مكان عملي في مدينة بلتيمور التي تبعد أربع ساعات بالسيارة عن قلب مدينة نيويورك. رجعت متعبًا وخالي الوفاض إلى مبنى YMCA وهناك طلبت من المسؤول الإداري أن يساعدني في هذا الشأن. وبعد أن تفحص الحوالة والأوراق اقترح عليَّ أن أسافر إلى هناك لتسلم المبلغ، وقد أقرضني مبلغ 30 دولارًا أجور سفر من وإلى مدينة نيويورك، لكنه في الوقت نفسه كان يحدق في الكاميرا التي كنت أحملها وهي من نوع CANON

الألمانية الصنع. أجبته شاكرًا: سأترك في خزانتكم كاميرتي حتى أعود من هذه السفرة! وقد سرَّ لهذا الاقتراح وأخذ الكاميرا وهو يتفحص جودتها بإمعان!

سافرت صباح اليوم التالي إلى مدينة بلتيمور وقبضت 100 دولار وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. بعد رجوعي اتفقت مع صاحبي الضابط الفيليبيني بأن نسهر الليلة معًا فجلنا في مرابع مدينة نيويورك المنورة بالأضواء والنيونات الملونة وشاهدنا الفتيات الجميلات الخ. في وقت متأخر من الليل دخلنا إلى أحد النوادي الليلية التي كان في برنامجها عرض غنائي ورقص استعراضي. قُدم لنا الشراب عند الدخول وما أن شاهدنا العرض واستمتعنا بالأغاني والموسيقى حتى طلبنا الفاتورة المذهلة، إذ كان على كل منا أن يدفع 25 دولارًا وهو مبلغ يشمل أجرة الدخول إلى النادي وقيمة المشروب إلى أمور أخرى غير مفهومة بالنسبة إلينا منها ضريبة المدينة والضريبة الفدرالية والأغطية المفروشة على المائدة وغيرها!! اعترض صاحبي الفيليبيني قائلًا للشخص القائم بخدمتنا: إننا لسنا مواطنين أميركيين لكي ندفع هذه الضرائب! وقد أيدته في ذلك بينما قهقه المسؤول وهو يشرح لنا الأمر، وأبلغنا أنه سيتنازل عن خدمته الشخصية الـ TIP كهدية لنا بمناسبة عيد الكرسمس الذي سيكون بعد غدٍ. فشكرناه بعد أن دفعنا المبلغ وتركنا الملهى سالمين!

قضيت ثلاثة أيام في نيويورك قبل أن أغادر إلى المستشفى المخصص الذي سأعمل وأتدرب فيه وكان اسمه BALTIMORE, CITY, HOSPITAL وهو مستشفى كبير جدًا تابع لإدارة مدينة بلتيمور، التي تقوم برعاية وسد نفقات هذه المؤسسة الصحية الضخمة. كما أن المستشفى مرتبط بجامعة «جون هوبكنز» الأميركية الشهيرة والموجودة في المدينة نفسها فور وصولي إلى المستشفى مع أمتعتي توجهت إلى مكتب الاستقبال وقدمت نفسي للسيدة الموجودة فيه. طلبت مني أن أستريح قليلًا لكي تستدعي أحدًا يساعدني، وبعد دقائق ظهر شخص بلباس طبي أبيض اللون (قمصلة بيضاء) متوجهًا نحوي قائلًا: هل أنت الدكتور مكية؟ فأجبته: نعم. دخل المستشفى وخرج مستصحبًا (STRECHER) وهو السرير الذي يستعمل لنقل المرضى داخل المستشفى. وضع أمتعتي الثقيلة فوقه وقال لي: اتبعني رجاءً. صعدنا إلى الطابق الثالث حيث توجد الغرفة المخصصة لي وأعطاني مفاتيح الغرفة وقبل أن أحاول شكره باعتباره أحد عمال المستشفى OERDERLY قدم لي نفسه بالدكتور «برنر» رئيس المقيمين في قسم الأطفال في هذا المستشفى. بمعنى أنه رئيسي والمشرف على تدريبي! (تواضع غير مألوف بالنسبة إلي)، فلم أكن أتوقع هذه الدرجة من البساطة في التعامل بين الأفراد. فلا يوجد تمايز طبقي أو اجتماعي مثلًا عند تناول الطعام داخل

المستشفى. هناك مطعم واحد لجميع منتسبي المستشفى من أساتذة وأطباء وممرضين وعمال ومستخدمين. كلهم يتناولون الوجبات نفسها ويقفون في خط الانتظار (الكيو) منتظرين دورهم لتناول حصتهم من الطعام المقدم لهم.

معظم الأطباء الذين يتوافدون لأول مرة إلى الولايات المتحدة وخاصة من البلدان النامية، يصادفون بعض المواقف المحرجة نتيجة لعدم معرفة أو توقعات ردود أفعال تصرفاتهم في هذا العالم الجديد. أتذكر قبل أن يمضي على التحاقي بهذا المستشفى سوى أسابيع قليلة، وكنت المقيم الخفر، وإذا بجرس التلفون يدق في الساعة الرابعة صباحًا من مركز الطوارىء للحضور فورًا. وعند وصولي شاهدت أمًا خائفة تحمل طفلها المصاب بضيق التنفس والحمى. بعد فحصه طمأنتها، ولعدم وجود صيدلي خفر في هذا الوقت المتأخر ناولتها الدواء اللازم وكتبت تعليمات الاستعمال بيدي على قنينة الدواء. لكن المشكلة أنني كتبتها باللغة العربية (ملعقة كوب ثلاث مرات يوميًا). كانت الأم تحملق في وجهي عند الكتابة وسألتني قائلة: دكتور ما هي اللغة التي كتبت بها التعليمات؟ أحسست فورًا بالورطة وقد خفت أن تشكوني في اليوم التالي إلى رئيس القسم. فأجبتها على الفور: أيها الأم العزيزة اعذريني لأني توقعت أنك تجيدين اللغة اللاتينية العلمية! فأجابت: مع الأسف لا أجيد هذه اللغة ولكن على الأقل تعلمت أنها تُكتب من اليمين إلى اليسار!

منذ وطئت قدمي الولايات المتحدة وجدت في كل استمارة أو طلب يجب أن أدون تاريخ الولادة باليوم والشهر والسنة. عندما التحقت بالمستشفى هذه المرة سجلت تاريخ ولادتي 4 ـ 4 ـ 1927، في أحد الأيام وبينما كنت منهمكًا في فحص أحد الأطفال في العيادة الخارجية، وإذ برئيسة الممرضات (مسز بون) ترجوني أن أحضر إلى قاعة الأشعة، وعندما وصلت إلى هناك وإذ بجمع من الأطباء والممرضات يحتفلون بعيد ميلاد، فالبالونات متدلية من السقف وقطعة كبيرة من كعكة عيد الميلاد تتوسط القاعة، فاشتركت فورًا بالغناء معهم وسألت بعد ذلك الدكتور «فنبرغ» رئيس قسم العيادة الخارجية: اليوم عيد ميلاد من؟ فضحك قائلًا: هذا يوم عيد ميلادك! إنك جدّي ومنغمس في العمل بحيث أنك نسيت يوم عيد ميلادك! فابتسمت مفتخرًا بهذا الإطراء من رئيس القسم. اللطيف في الأمر أن زوجتي وبناتي وأحفادي يحتفلون معي بهذا التاريخ المختلق أصلًا حتى الوقت الحاضر.

كان رئيس شعبة الأطفال في المستشفى هو الدكتور «هارولد هارسن» ومساعده فنبرغ كلاهما ينتميان إلى الطائفية اليهودية، وهما ذكيان وصاحبا خبرة عالية المستوى علميًا سريريًا وبحثيًا. فبينما الأول له بحوث في موضوع الكساح بأنواعه المختلفة عند الأطفال، نجد أن مساعده كان يعتبر حجة في علاج الجفاف بأنواعه عند الأطفال على

صعيد الولايات المتحدة والعالم. وقد استفدتُ من خبرته في هذا الشأن عند رجوعي إلى العراق حيث كان الجفاف يسبب الإسهال السبب الرئيسي لوفيات الأطفال دون السنة من العمر. رغم التأزم الذي كان محتدمًا في منطقة الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل، لم أشعر بأي تميز في معاملتهما لي خلال مدة الأربع سنوات التي قضيتها معهما.

من الحوادث الطارئة التي وقعت وتركت أثرًا محزنًا في نفسي خلال وجودي في الولايات المتحدة، هو وصول ابن عمتي «مفيد محمد العطار» إلى مدينة بلتيمور سنة 1956 قادمًا من بغداد كطالب بعثة على حساب مجلس الإعمار بعد حصوله على الشهادة الجامعية. استقبلته ورحبت به ولكن سرعان ما أسر لي بأن عنده مشكلة طبية خطيرة يسعى إلى معالجتها أثناء وجوده في الولايات المتحدة. وأخيرًا عرفت أن الصمام الأبهر المنبثق من البطين الأيسر لقلبه مصاب بخلل وظيفي نتيجة إصابة قديمة بمرض الروماتيزم. بعد عرضه على الأطباء المختصين ظهر أن العلاج الوحيد في تلك الفترة هو استعمال جراحة القلب المفتوح والشخص المؤهل والمكتشف لهذه العملية هو الدكتور «هوفنيكل»، والعملية تسمى باسمه وهو موجود في العاصمة واشنطن. ذهبت معه إلى هذا الجرّاح الذي شرح العملية ومدى خطورتها التي قد تتجاوز 25% (وهذه نسبة عالية جدًا) ولكن مفيدًا أصر على إجرائها وأقنع العائلة

بذلك أيضًا. أخذت إجازة لمدة أسبوع من المستشفى واستأجرت شقة في العاصمة واشنطن، ويوم إجراء العملية حضر الصديق الشهم الدكتور محمود تامر الذي كان يشتغل معي كمقيم في المستشفى نفسه. توفي مفيد أثناء العملية ونحن نشاهد بألم توقف دقات قلبه على الشاشة المثبتة في غرفة العمليات. قمت بواجب الإشراف على تنفيذ المتطلبات كافة التي يجب إجراؤها بالتعاون مع السفارة العراقية في واشنطن، التي كانت مسؤولة عن دفع كافة النفقات المتعلقة بهذا الأمر، ومن ضمنها نقل الجثمان إلى بغداد بالطائرة. اتصلت أولًا بمكتب مراسيم دفن الموتى في مدينة واشنطن وطلبتُ منه القيام بجميع الأمور التي تتعلق بمراسيم الحفل التأبيني في واشنطن. ونقل الجثمان إلى بغداد بالطائرة. طلب مني المكتب أن أختار الصندوق الذي سينقل فيه الجثمان من حانوت مخصص في أحد شوارع واشنطن. وعندما ذهبت إلى هناك دُهشت بأن المحل كبير جدًا وفي داخله ديكورات حديثة وأضواء باهرة وعشرات الصناديق المعروضة بمواصفات مختلفة وأحجام متباينة وأسعار مرتفعة (قدرت حجم الحانوت بحجم مخازن أورزدي باك الشهيرة في بغداد). أخيرًا اخترت أحد الصناديق المتواضعة وبسعر 300 دولار فقط! وأخبرتهم بالتنسيق مع إمام جامع واشنطن لإجراء الحفل التأبيني له بعد الاتصال بأكبر عدد من الجالية العراقية الموجودة في

العاصمة. وقد أُرسل الجثمان بعد ذلك عن طريق الجو إلى بغداد ليدفن في مقبرة العائلة في النجف الأشرف. عند رجوعي إلى الوطن شكرني معظم أفراد العائلة على القيام بواجبي تجاه ابن عمتي! ولكن قالوا لي إن الصندوق الذي اخترته أحدث مشكلة بين السادة الذين يقومون بعملية الدفن في مقبرة النجف، حيث جرى جدال أدى إلى عراك للاستيلاء على هذا الصندوق الثمين والغريب في الوقت نفسه! فضحكت وقلت لهم: أحمد الله أنه لم تحدث ضحية ثانية نتيجة تلك المعركة التي جذورها أميركية! بعد أن اجتزت امتحان الاختصاص المسمى بالبورد الأميركي حزمتُ أمتعتي راجعًا إلى بلدي. كنت أول طبيب في العراق ينال هذا الاختصاص من الولايات المتحدة. فتحت عيادتي الخاصة في شارع الرشيد (السنك). كانت عيادتي تبعد حوالى ثلاثين مترًا عن موقع عيادة أستاذي السابق وزميلي الحاضر الدكتور عبد الأمير علاوي، الذي كان أشهر طبيب أطفال في العراق. حاولت بداية الأمر أن أعالج مرضاي على الطريقة الأميركية فجعلت أجرة الفحص دينارًا واحدًا بدل نصف دينار الذي كان هو معدل أجرة زملائي أطباء الأطفال الآخرين لكي أستقبل عددًا محدودًا من المرضى.

عملتُ على تطبيق الفحص حسب السجل الخاص لكل مريض (كارد سيستم CARD SYSTEM) لجميع المرضى! كل مريض تؤخذ درجة حرارته وقياس وزنه قبل

الفحص. كما جعلت إحدى غرف العيادة مختبرًا صغيرًا لتحليل الدم والإدرار الذي قد يساعدني أحيانًا على تشخيص المرض في حالة بعض الأمراض الحادة والمعدية. كنت أقوم بهذه التحاليل بنفسي وبدون أجور إضافية. ولكن بعد شهرين أغلقت المختبر بسبب أن أولياء الأطفال كانوا لا يحبذون ذلك وأحيانًا يسألونني بسذاجة: دكتور لماذا تجري هذه التحاليل! هل أنت غير متأكد من المرض؟ وتعليق مزعج آخر: هذا الطفل لا يتحمل تحليل دم! رغم أني أستعمل قطرةً واحدةً من دمه فقط لإجراء مثل هذه التحاليل البسيطة! في إحدى المرات وبينما أنا منهمك في تحليل دم أحد الأطفال تساعدني الممرضة على ذلك، سقطت أم الطفل الواقفة على باب المختبر مغشيًا عليها! فتحتُ الباب تاركًا الطفل بيد الممرضة لكي أجري الإسعافات الأولية اللازمة لها مع حقنة (أدرنالين) حتى استفاقت من الغيبوبة! قلت لنفسي هذا وقت التراجع! فأغلقت المختبر بعد هذا الحادث. سألت الفراش (فاضل شمخي): هل شغل العيادة تحسن بعد غلق المختبر؟ أجابني مبتسمًا: عمي نصف عدد المرضى في المساء يخرج من عيادتنا إلى العيادات المجاورة لنا بسبب ذلك المختبر!

لقد صادفت بعض المفارقات اللطيفة أثناء ممارستي المهنة في بغداد. كنت غير ميال لإعطاء الأدوية غير الضرورية للمريض وعلى الخصوص مضادات الحياة، لأن معظم الأمراض الطارئة عند الأطفال التي تسبب الحمى

والنزلات الصدرية هو نتيجة الإصابة بالفيروسات المختلفة، التي لا تتأثر بتناول هذه الأدوية. لذلك كثير من هؤلاء أمتنع عن إعطائهم وصفة (رجته) وبدل ذلك أوصيهم بإعطاء الطفل حبوب الأسبرين المخصصة للأطفال والإكثار من تناول السوائل. لكن قسمًا من هؤلاء يتوجه إلى الباب بدون دفع أجرة الفحص وبعضهم يتساءلون: دكتور! اكو حاجة لدفع الكشفية (أجرة الفحص) ما دام ماكو وصفة!

بعد أن أمضيت مدة في العيادة وتحسن وضعها ودخلها المادي، لاحظتُ أني تكيفت لاإراديًا مع عقلية الناس بدون محاولة غشهم على الأقل. جاءني واحد من مرضاي القدامى بصحبة والده وكان مدرسًا في جانب الكرخ عصر يوم السبت، وكان أول مريض أستقبله لأنه جاء مبكرًا جدًا وابتدرني قائلًا: دكتور مهدي، لماذا تغلق العيادة أيام الجمع لأن محمدًا أصيب بحمى عالية جدًا البارحة وجئنا به إلى عيادتك ولكن وجدنا العيادة مغلقة! فسألته: لماذا لم تأخذه إلى طبيب آخر وكثير من الأطباء موجودون في عياداتهم أيام الجمع؟ وبدل من أن أسمع منه جوابًا يبرر انتظاره، بأن يثني على خبرتي واختصاصي أو شهادتي أجاب أبو محمد: الصدق دكتور أنت وجك (وجهك) بشوش، وما أريد أن أنفع غيرك!! هذا هو أحد مقاييس الناس في بغداد في اختيار أطبائهم وهذا يشمل قسمًا كبيرًا من المثقفين أيضًا. علاقة الطبيب في الغرب مع المريض مهنية فقط، بينما في العراق وربما في البلدان

الشرقية الأخرى لها طابع مهني واجتماعي في الوقت نفسه وكأن الطبيب جزء من عائلة واحدة. كما هناك تفاعل متبادل بين الطرفين يتجاوز حدود الطبابة، لذلك يشعر الطبيب عندنا بلذة خاصة عندما يمارس مهنته في بلده، تفوق مرات عديدة قيمة المكسب المادي الذي يحصل عليه عن هذه الخدمة! هذه الظاهرة قد تُفسر الحافز الحقيقي لقسم كبير من زملائي الأطباء الذين يقضون فترات طويلة جدًا في عياداتهم بدون كللٍ أو مللٍ، أو أحيانًا حتى منتصف الليل، تاركين وراءهم بيوتهم وعوائلهم. علمًا أن كثيرًا من هؤلاء الذين أعرفهم وضعهم المالي جيد وليسوا بحاجة إلى المزيد. ولكن كنت ألاحظ أنهم يفتخرون بذلك لأن الناس تحتاج إليهم وتثق بهم وأن أسماءهم لامعة في المجتمع الذين يعيشون فيه. بعد أن فتحت العيادة بفترة قصيرة أخذت موعدًا لمقابلة وزير الصحة الدكتور عبد الأمير علاوي، وهو كما ذكرت أستاذي والآن أصبحت جاره في شارع الرشيد (الذي كان في ذلك الوقت هارلي ستريت بغداد، إذ إن حوالى 80% من الأطباء الأخصائيين يفتتحون عياداتهم الخاصة على طول هذا الشارع القصير وبالأخص من بداية ساحة الغريري إلى باب الشرقي). كان الوزير مسرورًا لمشاهدتي، وبعد أن تفحص الشهادة والتنويه بجهودي أثناء الإقامة من قبل الأساتذة والأطباء الذين قاموا بالإشراف على تدريبي في مستشفى بلتيمور، قال لي: لديك يا مهدي مكانان ملائمان لمركزك العلمي، أحدهما في مستشفى

حماية الأطفال وهو المستشفى الرئيسي في البلد وفيه عدد كبير من الاختصاصيين، والآخر هو أن نفتتح لك شعبة أطفال جديدة في مستشفى «الشعب» ثاني أكبر مستشفى في بغداد لتكون رئيس القسم هناك. شعرت أنه يحبذ العرض الثاني فقبلته على الفور.

الجو السياسي
بعد رجوعي إلى بغداد

لزامًا عليَّ أن أذكرَ بعض الملاحظات عن الحركة السياسية المحتدمة في الشارع السياسي في بغداد بين الحكومة من جانب والمعارضة من الجانب الآخر. كان التيار اليساري بقيادة الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديموقراطي بينما كانت الحركة القومية النشطة بقيادة حزب الاستقلال. كما أن حركة متنامية جديدة ظهرت عززت التيار القومي وهو حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي كان موقفه في الشارع السياسي العراقي ضعيفًا ويتركز نشاطه في الحركة الطلابية وبين صغار ضباط الجيش العراقي. كان صديقي الدكتور جعفر الحسني من أوائل الأطباء المنتمين إلى الحزب الوطني الديموقراطي يمدني بالمعلومات عن جبهة الأحزاب الوطنية المعارضة والتنظيم السري للضباط الأحرار في العراق، الذي كان يتحين الفرصة لإسقاط النظام الملكي الذي حدث فعلًا صباح يوم 14 تموز، نتيجة انقلاب عسكري قام به هذا التنظيم السري وكان على رأسه الزعيم الركن عبد الكريم قاسم. كما أن هذا التنظيم كان

ينسق مع الأحزاب الوطنية المؤيدة له لإطاحة الحكم الملكي. كان التأييد الجماهيري لهذه الحركة شاملًا كل قطاعات المجتمع العراقي ومن جميع أنحاء العراق تقريبًا.

ثورة 14 تموز

هرعت إلى الشارع فور سماعي إعلان الثورة من شاشة التلفاز صباح يوم 14 تموز 1958. كان بيتنا في الصالحية وأول شيء حاولت رؤيته هو تمثال (مود) القائم في الشواكة، والذي يبعد عن دارنا أقل من كيلومتر واحد. وإذ بي أشاهد الألوف من الناس يملأون الشوارع المحيطة بمبنى السفارة البريطانية الواقع على ساحل النهر في محلة «الكريمات» وقسم منهم يحاول الإطاحة بهذا الصنم الحديدي الأسود المنتصب في الساحة. بقيت أشاهد هذا المنظر مدة نصف ساعة إلى أن أكمل عشرات الرجال الأشداء سحبه وإسقاطه أرضًا بواسطة سلاسل حديدية من عدة جوانب. بعد ذلك توجهتُ فورًا إلى دار نوري السعيد في كرادة مريم (تُسمّى الآن بالمنطقة الخضراء)، وفي طريقي شاهدت عشرات المواطنين يتجهون إلى بيته المتروك بدون حراسة كان البيت يقع على شاطىء نهر دجلة مباشرة. وما لفت نظري هو بساطة بنائه وأثاثه، وعلمتُ بعدئذ أنه كان شخصًا نزيهًا. ويقال أن أحد أحفاده في لندن (أحد أولاد ابنه صباح) كانت تُجمع له تبرعات من أصدقاء العائلة

لإتمام دراسته الجامعية في المملكة المتحدة. هذا الشخص اغتيل وسُحلت جثته في الشوارع بدون محاكمة. (وأعترف الآن أني كنت أنا واحدًا من الناس الذين ابتهجوا لهذا الحدث ولكن أعتقد أن حكم التاريخ هو عادة أقربُ للعدالة من حكم الجماهير العاطفية الغاضبة).

لا بد أن أذكر موقفي في تلك الفترة من هذه التطورات السياسية السريعة. إنني وطني عاطفي متفاعل وغير سلبي. وبكلمة أخرى أحاول أن أتخذ موقفًا بدون النظر إلى مصلحتي الشخصية. ليس عندي طموح سياسي وقد يكون انتمائي إلى الحزب الوطني الديموقراطي لإيجاد منفذ فعال لي لتعزيز مبدأ التوافق بين القوى السياسية المتطرفة بدل الصراع المتفاقم الذي قد يؤدي إلى خراب البلد.

كنت في الوقت نفسه أنظرُ بإعجاب إلى الأعمال التي قام بها الزعيم المصري عبد الناصر، فهو أول حاكم مصري الأصل حكم مصر منذ قرون عديدة وحافظ على استقلالها، حيث أخرج القوات البريطانية المرابطة في مصر وأصبح أحد زعماء العالم البارزين في مجموعة كتلة عدم الانحياز للبلدان الساعية إلى التطور بدون التورط في الصراع الذي كان محتدمًا بين الكتلة السوفياتية من جانب والعالم العربي من جانب آخر. تحدى الغرب وسلَّح بلده بأسلحة مستوردة من الكتلة الشرقية، وبنى السد العالي بمساعدة الاتحاد السوفياتي، وأمم قناة السويس، وحارب

حلف بغداد المشتبه فيه. ولكن في الوقت نفسه كانت لديه طموحات كثيرة فشل في التخطيط لها أو إداراتها بصورة جيدة، وعلى رأسها القضية الفلسطينية ومجابهة إسرائيل والتسرع غير المدروس لتطبيق الوحدة العربية. كما أنه لم يعر اهتمامًا يذكر لرفع المستوى الاقتصادي والثقافي للشعب المصري المتخلف في هذه الجوانب المهمة، كما أنه لم يحاول نشر الديموقراطية بين أبناء شعبه بتبنيه سياسة الحزب الواحد الذي يفشل دائمًا في النهاية لأنه يستقطب عادة المتزلفين والانتهازيين.

لنكن واقعيين، نادرًا ما يظهر قائد عسكري في العصر الحديث يتسلم القيادة وهو يملك بحكم مهنته العسكرية العمق السياسي والبعد الحضاري لإدارة دولة حديثة، فالفشل سيكون حليفه عاجلًا أم آجلًا! هذا ما حدث مع عبد الكريم قاسم في العراق أيضًا. هل عبد الناصر وعبد الكريم قاسم خائنان أم عميلان؟ كلا. هل أثريا وبنيا القصور من أموال الشعوب؟ كلا. لكنهما غير مؤهلين لحكم عصري مدني، لأنهما متشبعان بالروح العسكرية المنضبطة التي حرمتهما حق النقاش وإطاعة الأوامر الصادرة إليهما بدون نقاش! الانقلابات العسكرية ستكون في المستقبل في خبر كان وقد تقلصت في منطقتي أميركا الجنوبية والشرق الأوسط اللتين كانتا في الماضي مسرحًا فعالًا لها مدة طويلة من الزمن. غير أن المهزلة

أن الدول الغربية الديموقراطية المتحضرة كانت تشجع مثل هذه الانقلابات لخدمة مصالحها الاقتصادية، ولكن أخذت في الآونة الأخيرة تتردد أو تنكمش أحيانًا عن تأييدها بصورة عامة.

اكتسح عبد الكريم قاسم بشعبيته الشارع السياسي في بغداد ومعظم أنحاء العراق، وكانت له شعبية جماهيرية واسعة بحيث لم يتمكن عبد السلام عارف من منافسته في هذا الشأن رغم مساندة القوميين والبعثيين الجدد له. للأسف الشديد دخل الجيش العراقي طرفًا في الصراع الحزبي الدائر بقوة إذ قام بعد فترة وجيزة من نجاح الثورة، بمحاولة انقلاب عسكري فاشلة في الموصل اشترك فيها عدد كبير من ضباط الجيش من ذوي الرتب العالية (وغالبية هؤلاء هم من القوميين والمحافظين والرجعيين) والموجودين في بغداد وكركوك. يُقال أن الجمهورية العربية المتحدة في مصر كانت تنسق معهم؟

محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم

شاء القدر أن أكون شاهد عيان لهذه الحادثة لأن عيادتي واقعة في محلة رأس القرية بشارع الرشيد، والمحاولة التي حدثت كانت تبعد عن عيادتي حوالى 150 مترًا. عصر أحد الأيام وبينما أنا أفحص أحد المرضى في عيادتي وإذ بأصوات طلقات نارية متتالية مع ضجيج وصياح الناس الموجودين في الشارع وهم يصيحون بأعلى أصواتهم: الزعيم انضرب يا ناس! ياناس الحكَو!! خرجتُ إلى الشرفة (البلكون) فشاهدت بعيني الناس وهم يركضون ، منهم الفارون ومنهم المندفعون نحو مكان الحادث. طلبت من الفراش إغلاق باب الشرفة وإدخال الأطفال وأوليائهم إلى داخل العيادة بعيدًا عن زجاج الشبابيك. بعد خمس دقائق تحركت سيارة الزعيم ومعها عدد من سيارات الشرطة وآلاف الناس يحيطون بسيارته وهم يهتفون بحماسة: ماكو زعيم إلا كريم!!

توجهت سيارته إلى الباب الشرقي في طريقها إلى مستشفى «السلام» في العلوية (التي سميت بهذا الاسم بعد أن عولج فيها عبد الكريم وخرج سالمًا). كانت الإصابة في

الساعد قد أدت إلى بعض الكسور، وقد قام كل من الدكتور خالد القصاب والدكتور هادي السباك بعلاجه في تلك الفترة. لقد فاجأ عبد الكريم قاسم ذلك المساء الناس في العراق ووكالات الأنباء العالمية حين ظهر على شاشة التلفاز معلنًا أنه نجا من هذه المؤامرة الخبيثة، وأنه يتمتع بصحة جيدة. كان هناك طبيب أسنان (اسمه عادل البكري) له عيادة في السنك (ساحة الغريري الحالية) من زمرة المتآمرين وقد اتصل به بعض أعضاء الشبكة المتآمرة من مبنى وزارة الدفاع وأخبروه بأن عبد الكريم ترك وزارة الدفاع متوجهًا إلى داره عن طريق شارع الرشيد، وهذا بدوره اتصل بالحلقة المنفذة التي تنتظر التنفيذ في منطقة «رأس القرية». كما قيل أن سيارة يسوقها أحد المتآمرين وقفت في منتصف شارع الرشيد ومقابل المصور بابل قُبيل وصول سيارة الزعيم إلى ساحة الغريري بدقائق بحجة وجود عطل في السيارة لتأخير حركة سير السيارات القادمة من باب المعظم، والمتوجهة إلى باب الشرقي وكان هذا المحل تمامًا قبالة عيادتي.

لاحظت أن الأغلبية الساحقة من عامة الناس كانت تحب عبد الكريم قاسم وتثق به، وكانت شعبيته تطغى على شعبية الأحزاب اليسارية واليمينية ويطلق على هؤلاء الموالين لقب (القاسميين).

لقد حذرت الأحزاب اليسارية ومن جملتها الحزب

الوطني الديمواقرطي عبد الكريم قاسم، أن لا يسعى لتقليد عبد الناصر وإنشاء حزب جديد يكون بزعامته. وقد اقتنع بذلك ولكنه كان يميل إلى أفكار يسارية معتدلة ويثق ببعض شخصيات الحزب الوطني الديموقراطي ومنهم نائب رئيس الحزب (محمد حديد) والدكتور طلعت الشيباني، لأنه شاهد عدم تطرف الحزب وثبات التزام قيادته بالديموقراطية البرلمانية والاشتراكية المعتدلة. حاول الأستاذ محمد حديد أن يشجع عبد الكريم قاسم على الانتماء إلى الحزب، ولكن رئيس الحزب الأستاذ كامل الجادرجي لم يكن يحبذ ذلك، لأنه لا يثق برجال الجيش عند ممارستهم السياسة كما حدث حين استوزر في وزارة حكمت سليمان بعد الانقلاب العسكري الذي قام به «بكر صدقي» مع زميله الزعيم الشعبي جعفر أبو التمن، حيث شاهدا دكتاتورية بكر صدقي وطغيانه بالإضافة إلى عدم التزامه بالمبادىء الديموقراطية التي اتفقوا عليها، مما اضطرهما الى الاستقالة من تلك الوزارة. نتيجة هذا الاختلاف في وجهة النظر على صعيد القيادة انشق الأستاذ محمد حديد عن الحزب وكون حزبًا جديدًا سماه «الحزب الوطني التقدمي» وكان هذا الحزب الجديد يلتزم بكل مبادىء الحزب الوطني الديموقراطي الأم ولكنه ظل يسند رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم. كنت مع مجموعة الأستاذ كامل وأصبحت بعدئذ رئيسًا لتنظيم منتسبي ذوي المهن الطبية في الحزب الذي

يشمل الأطباء والصيادلة. أتذكر أن استدعيت يومًا إلى جلسة خاصة للجنة المركزية للحزب لمناقشة موقفنا حول انتخابات نقابة الأطباء في العراق التي كانت ستجري قريبًا. سألني كامل الجادرجي: هل تعتقد أن بإمكانكم أن تقدموا قائمة ثالثة تنافس القائمتين القويتين الشيوعة والقومية؟ كان جوابي: إن عدد الأعضاء الحزبيين الملتزمين من أطباء وصيادلة محدود. لذلك لا يسعنا تقديم قائمة منفصلة تتمكن من أن تنافس القائمتين اللتين ذكرتهما!

سألني ما هي الخيارات المتاحة لكم؟ أجبته أن خياراتنا المتاحة في الوقت الحاضر هي:

1 ـ المقاطعة؛

2 ـ الحضور وإسقاط أوراق بيضاء؛

3 ـ أن نشارك ونترك للأعضاء اختيار النقيب وأعضاء اللجنة من كلا القائمتين المطروحتين حسب اجتهادهم الشخصي وانتخاب الشخص المناسب أو المؤهل لذلك المنصب!

لقد أيدت قيادة الحزب بالإجماع الاقتراح الأخير لأنه أقرب للديموقراطية ويبتعد عن مبدأ الانعزال والسلبية في العمل السياسي.

في حين كان التأزم الحاد والمزمن يتصاعد يومًا بعد يوم بين القوميين والشيوعيين، ظل رئيس الوزراء عبد

الكريم قاسم يحاول تقليل حدة المجابهة بين هذين العملاقين المدعومين من قبل قوى دولية كبيرة. لم يفلح عبد الكريم في مسعاه. وذهب ضحية سهلة بانقلاب قومي عسكري يوم 14 رمضان 1963 أطاح حكومته رغم شعبيته الجارفة، كما قُضيَ على مقاومة الحزب الشيوعي بقسوة متناهية ووحشية لا مثيل لها!

لم يمنح الانقلابيون عبد الكريم قاسم الفرصة كي يدافعَ عن نفسه. فأُعدم بعد ساعات فقط من إلقاء القبض عليه، وإظهاره بصورة بشعة بعد إعدامه مباشرة على شاشة التلفاز لإرهاب الناس وتيئيسهم من عودته مرة ثانية.

موقعي الوظيفي

أثناء ثورة 14 تموز وبعدها

تحدثت عن موقعي الوظيفي أثناء الفترة التي تلت ثورة 14 تموز حيث كنت كما أسلفت رئيسًا لقسم الأطفال في مستشفى الشعب قبل الثورة. جرت أثناء وجودي في هذا المستشفى حملة عامة في جميع مؤسسات الدولة ومن ضمنها مستشفانا لانتخاب لجان لدعم الجمهورية الفتية في كل أنحاء العراق، وحمايتها من القوى الشريرة التي تسعى لتقويضها. فزتُ بعد الانتخاب برئاسة اللجنة، وحاولت أن أجمع كل الأطراف السياسية وأحمي بصورة خاصة القوميين الذين كانوا هم الأضعف من الاستفزازات التي كانوا يتعرضون لها. وبعد سنة، نقلت كمدير لمستشفى الهلال الأحمر للأطفال في العلوية. وكان من جملة أطباء الأطفال الذين اشتغلوا في هذا المستشفى، طبيب أطفال أردني شيوعي وبعد تركه العراق جاءت بديلًا منه طبيبة أطفال من إحدى الجمهوريات السوفياتية في وسط آسيا كان اسمها «نسيبا».

قبل أن تنطوي فترة حكم رئيس الوزراء عبد الكريم

قاسم، لاحظت ظاهرة جديدة وجديرة بالذكر وهي أني بدأت أشاهدُ لأول مرة عددًا متزايدًا من الطالبات في الكليّات والمعاهد العالية، يعلقن على صدورهن قلائد ذهبية تحمل شعارات دينية كجزء من الحملة السياسية التي كانت تدبر ضد عبد الكريم قاسم والشيوعيين. وهكذا برزت على الساحة السياسية العراقية ظاهرة تسييس الدين لأول مرة.

قصة زواجي

في حوالى منتصف 1960 شيدتُ دارًا جديدة في عرصات الهندية قام بهندستها ابن العم المهنس الدكتور محمد مكية. كان البيت رغم بساطة بنائه يتمتع بجمالية وذوق رفيع. كانت حديقته واسعة: القسم الأكبر منها في مقدمة الدار والقسم الخلفي خُصص لزرع الخضروات والفواكه المختلفة.

بعد الاستقرار وبناء الدار أصبح الزواج على الأبواب. كانت شريكة حياتي يونانية الجنسية اسمها «ماري» تعرفت عليها مصادفة في إحدى الحفلات وكانت تشتغل مع أحد أفراد عائلتها في شركة (توكسيادس) اليونانية التي كانت متعاقدةً لإنجاز عقود ضخمة مع الحكومة العراقية. كان زواجي مفاجئًا للعائلة لأني سجلتُ عقد الزواج في البداية عند الكاتب العدل وكان الشاهدان اثنين من أعزّ أصدقائي وهما المحامي الحقوقي داود الأسود والدكتور محمد جابر محسن. واللطيف في الأمر أنني بعد فترة قصيرة قررت تسجيل الزواج في المحكمة الشرعية، فصادفت هناك في هذه الدائرة صديقي العزيز عبد الرحمن الراوي، الذي

كان يعمل كمميز في دائرة المحكمة السنية. طلبت منه الإسراع في إجراء المعاملة قبل سفرتي القريبة إلى لبنان. ولكنه اعتذر مني قائلًا: المشكلة أن القاضي الجعفري مجاز لمدة أسبوع. ولكن إذا لم يكن عندك مانع من تسجيل العقد في المحكمة الشرعية السنية التي أشتغل فيها فسيكون بإمكاني إنجازها في ساعة واحدة. فأجبته على الفور: ليكن ذلك وأردفت مداعبًا إياه: احنا هسه كرد وعرب بس حزام فكيف الأمر بين السنة والشيعة! واللطيف قبل أن أخوض في موضوع آخر، أنني بعد حوالى عشر سنوات من تاريخ تسجيل العقد، وبينما كنت جالسًا في غرفة الصيدلانية «ليلى الحسيني» مع الطبيبين باسل محيى الدين وهشام ماهر، بدأ هشام الحديث موجهًا الخطاب لي قائلًا: مهدي، إنتو الشيعة أكثر تقدمية منا في بعض القضايا الشرعية. فأجبته ضاحكًا: متجوز من نكاتك وتعليقاتك، تعرف أني غير متضلع من هذه الأمور! أجاب: المشكلة جدية هذه المرة بالنسبة إلينا (يقصد الطائفة السنية) وهذا يشملني ويشمل الدكتور باسل، إذ أَن جميع أطفالنا أو ذريتنا من الإناث حيث إذا توفي أحدنا، فالشريعة السنية توصي بأن يشارك الذكور المقربون لنا كالأخوة مثلًا بناتنا في وراثتنا!

بعد أن سمعت هذا الخبر المقلق لأن عندي المشكلة نفسها، وبدون التأكد من صحة الخبر والاستفسار عنه لتدارك المشكلة، اتصلت في اليوم التالي بصديقي المحامي عبد الجبار البياتي لتقديم دعوى جديدة لتسجيل عقد زواجي

ثانيةً، لكن هذه المرة، في المحكمة الشرعية الجعفرية. وعند حضورنا أمام القاضي الجعفري طلب منا شاهدين للتصديق على صحة إفادتي وحقيقة انتمائي إلى الطائفة الشيعية (الجعفرية)، وقد التقطناهما من بين رواد المحكمة وأحدهما رفيقي في المدرسة الثانوية المحامي عبد العظيم الشماع. وهكذا رجعنا إلى قواعدنا سالمين!!

توالت الأخبار المفرحة بعد بناء الدار في عرصات الهندية والزواج وشراء سيارة جديدة من نوع فورد غلاكسي. ولكن الفرحة لم تدم طويلًا، فأثناء قضاء شهر العسل في بيروت ولم يبق على نهايته إلا أيام معدودة، وبينما كنت أسبح على شاطىء البحر الأبيض المتوسط الجميل، وإذ بموجة عالية ترفعني عاليًا ومن ثم تدفعني بشدة نحو قعره الرملي... فخرجت من الماء وإذ بيدي اليسرى متدلية بسبب كسر عظم الساعد. هرع إليَّ المسؤول عن مراقبة الشاطىء قائلًا لي: سوف أحاول أن أرسل إليك ممرضًا صحيًا ليساعدك ويقدم لك الإسعافات الأولية الضرورية. فقلت له وأنا رافع يدي اليسرى المتدلية بيدي اليمنى: لا حاجة لاستدعاء أحد لأني طبيب وعندي كسر متكامل في الساعد وأحتاج إلى سيارة إسعاف لتأخذني فورًا إلى أقرب مستشفى. وهذا ما حدث. وإذ بي في «مستشفى الخوري» وهو مستشفى أهلي غير حكومي. استدعى المستشفى جراح العظام وبعد أن عرف هويتي تبين أنه يحمل شهادة البورد

الأميركية نفسها ولكن في جراحة العظام. بعد مشاهدة الكسر بواسطة جهاز الأشعة، ثبت طرفي العظم ولفهما بلفافة من الجبس حسب الأصول المتبعة في علاج هذه الحالات، واقترح أن يفحصني في اليوم التالي قبل المغادرة إلى العراق. الحقيقة أني كنت قلقًا بسبب التكاليف المتوجبة دفعها لقاء الخدمات الجيدة في مستشفى حديث من هذا النوع، علمًا أن كل ما تبقى لي من المال يكاد لا يكفي لتأمين نفقات السفر الضرورية خلال يومين أو ثلاثة أيام فقط. لكنني اطمأننت عندما تذكرتُ أن زميلي في المدرسة الثانوية «عادل الشبيبي» كان هو مدير فرع مصرف الرافدين في بيروت، وهو قادر بسهولة على تدبير أي مبلغ أطلبه منه!

طلبت الفاتورة في اليوم التالي من المحاسب الذي قال لي: إن السيدة الخوري زوجة صاحب المستشفى التي كانت تدير المستشفى نظرًا إلى سفر زوجها في مهمة خاصة إلى أوروبا تطلب رؤيتك. وعندما دخلت لشكرها ابتدرتني بالقول: دكتور لا توجد فاتورة حساب لك لأن الطبيب المعالج رفض تسجيل أي مبلغ له وكذلك إدارة المستشفى. أجبتها مندهشًا: يجب عليَّ، على الأقل أن أدفع الفحص الشعاعي وكلفة تجبير الساعد. أجابت: إنها كلها مجانًا لأنك طبيب أخصائي وتصرفنا معك ينسجمُ مع أصول أدب مهنة الطب. وأردفت قائلةً: إن طفلة رئيسة الممرضات في مستشفانا التي لا يتجاوز عمرها السنة

مصابة بالتهاب حاد في الأمعاء والجفاف، عسى أن يسمح لك الوقت بفحصها وإعطاء التوصيات الطبية اللازمة قبل سفرك. فامتثلت لطلبها. وأشهد أني لقيت تصرفًا حضاريًا وإنسانيًا غير مألوف في المنطقة كما أعتقد لو حدث لي مثل هذا الحادث في بغداد واضطررت أن أعالج في مستشفى خاص، فأشكُ أن ألقى المعاملة الحسنة نفسها التي لقيتها في مستشفى الخوري في بيروت!

عندما ذهبت مع زوجتي الحامل إلى عيادة أستاذي الدكتور كمال السامرائي، ظهر في الفحص أن مشيمة الوليد أو الوليدة ملتصقة بقعر الرحم بدل أن تكون على جوانبه، وهذا التعقيد يتطلب أحيانًا إجراء عملية قيصرية عند موعد الولادة، أو قد يرتئي الطبيب إجراء الولادة المعقدة بدون العملية! ولكن الطفل (وأنا أعرف ذلك جيدًا) يكون أكثر عرضةً للأذى أثناء عملية الولادة وأحيانًا يصابُ بالاختناق الموقت (بسبب قلة كمية الأوكسجين التي تصل إلى الدماغ) الذي عادة يسبب في المستقبل ضررًا دائمًا في الجهاز العصبي المركزي!!

رغم قلقي الشديد وأنا العارف بكل التفاصيل، تركت الأمر إلى الأستاذ السامرائي الذي عندي ثقة كبيرة بخبرته للبتّ في هذا الأمر! لقد أحضرنا الدم اللازم وقد اتصلت بأحد أصدقائي الذي كان مختصًا في التخدير ويسكن في منطقة العلوية القريبة من المستشفى ليكون جاهزًا لإسعاف المولود وإعطائه الأوكسجين المضغوط اللازم فور ولادته في حالة الاختناق! وخصوصًا إذا حدثت الولادة بعد

الدوام. عادة يقوم بإسعاف مثل هذه الحالات بصورة جيدة إما طبيب أخصائي بالتخدير وإما طبيب أخصائي في معالجة (حديثي الولادة والخُدج) والذي لم يكن متوافرًا آنذاك في العراق. يجب أن أذكرَ في هذا الصدد أن عددًا هائلًا من الأطفال المعوقين في العراق (التخلف العقلي و/ أو الشلل العضلي) كان ضحية إهمال الأطباء المختصين وعدم معالجة الاختناق الموقت بالسرعة اللازمة.

جاءت ساعة الصفر (الولادة) عن طريق التلفون وأنا في العيادة مساءً. فتركتُ المرضى والعيادة وركبتُ أقرب سيارة أجرة إلى المستشفى. وعند دخولي باب المستشفى الخارجي مسرعًا إلى الداخل، لاحظت أن وجوه العمال والحراس مكتئبة فتشاءمتُ من ذلك. وبعدما دخلتُ غرفة الولادة وإذ بالجو مختلف والكل فرحون مستبشرون بأن الولادة تمت بدون عملية والمولودة أنثى وبصحةٍ جيدة. فحملتها وعندما بكت أدركت أن جهازها التنفسي على مايرام ولونها أحمر يدلُّ على أن قلبها ودورتها الدموية جيدة، فحمدت الله وشكرته. وعندما رجعت متوجهًا إلى العيادة لفحص مرضاي سألت العمال والحراس الواقفين في الباب (وهم يعرفونني جيدًا): لماذا لم تبشروني بالولادة؟ فقالوا: الحقيقة أننا خفنا أن تتأثر لأنها بنية (بنت)! فأجبتهم ضاحكًا: لا تقلقوا فالبخشيش (الهدية) الذي سوف تقبضونه مني مال (ولد)!!

قررنا أن نسميها «سلمى» لأن ولادتها كانت طبيعية رغم وضعها غير الطبيعي داخل الرحم ولم تتعرض لأي مشكلة عند الولادة أو بعدها. وهكذا صار اسمي منذ ذلك اليوم وحتى كتابة هذه السطور (أبو سلمى).

بعد 14 رمضان

ظهر الصراعُ على السلطة جليًا بعد هذا التاريخ وفور سقوط نظام عبد الكريم قاسم بين القوميين الناصريين والاستقلاليين من جهة، وبين حزب البعث العربي الاشتراكي من جهة أخرى. بصورة عامة، لم تمس السلطة الجديدة لا قيادة ولا أفراد الحزب الوطني الديموقراطي كما فعلت بالشيوعيين. وحزبنا على الصعيد العملي قد حلَّ نفسه لأنه لا يؤمن مطلقًا بالأحزاب التي تعتمد على القوى العسكرية في تثبيت حكمها أو تنتهج تبديل أنظمة الحكم عن طريق الانقلابات، بل من خلال الانتخابات البرلمانية الديموقراطية كما هو الحال في تبادل السلطة في أكثر دول العالم تقدمًا. يجب أن أذكر أن السلطة الجديدة ألقت القبض على الأستاذ محمد حديد وبضعة قياديين في حزبه الجديد.

زيارة غير متوقعة لرئيس الوزراء البكر إلى مستشفى الهلال الأحمر

في أوج النزاع على السلطة كنت آنذاك مدير مستشفى الهلال الأحمر للأطفال في منطقة العلوية، وإذ بالمدير الإداري يدخل غرفتي فجأةً وهو يقول: السيد رئيس الوزراء أحمد حسن البكر دخل مستشفانا. خرجت مستغربًا أن يزور هذا المستشفى الصغير رئيس الوزراء في هذا الوضع المتأزم في البلد بين البعثيين والقوميين برئاسة عبد السلام محمد عارف. رحبت برئيس الوزراء الذي كان متوترًا بعض الشيء ولكن كان مؤدبًا معي بعد أن تعرف عليَّ. جال في ردهات المستشفى بسرعة وبينما كان يصعد السلم شاهد قطعة من الورق مرمية على الأرض من قبل أحد الأطفال المرضى، فالتفت خلفه مخاطبًا المدير الإداري المسكين قائلًا: حيوان أنت شنو شغلك غير المحافظة على النظافة! وعندما دخل الردهة الرئيسية والأمهات والأطفال واجمون راح يتفحصُ بإمعان سقف الردهة التي تساقط عن إحدى زواياها الصبغ بسبب أمطار سابقة، ثم ابتدرني بالسؤال: دكتور هل أخبرت المسؤولين في الوزارة عن ذلك؟ فأجبته: أرسلت

لهم ثلاثة كتب حول هذا الموضوع ولكن بدون أي استجابة، والمبالغ المرصودة لمستشفانا للأدامة (النثريات) لا تكفي نفقات التصليح. ثم أمر المدير الإداري أن يفتح باب السطح ليشاهد بنفسه السبب. فصعدنا معًا ولم يكن السطح ذا مستوى واحد بل يتكون من سقوف مختلفة الارتفاع، فكان علينا أن نقفز من سطح إلى آخر حتى وصلنا إلى منطقة النضح. فقال مؤشرًا: هذا هو السبب! وأعطى الأمر إلى مرافقه بأن يرسل عمالًا لتصليحه على وجه السرعة، وقد تحقق ذلك بعد يومين وقبل أن تسقط الوزارة! لقد كان المقصود من زيارته الغريبة لمستشفانا في مثل هذا الوقت العصيب، هو أن يبتعد عن مسرح الأحداث العاصفة التي كانت تشهدها الساحة السياسية بين الأجنحة والكتل داخل الحكومة التي يترأسها. وعلمت بعدئذ أن في الوقت الذي كان رئيس الوزارة يزور المستشفى، كان أحد الطيارين الحزبيين (أعتقد أنه منذر الونداوي) يقصف معسكر الرشيد في بغداد.

حوادث مختلفة أثناء الحكم العارفي

لم تمض إلا بضعة أشهر على انقلاب 14 رمضان حتى قام انقلاب عسكري جديد برئاسة عبد السلام محمد عارف ومساندة الأحزاب القومية ومباركة الجمهورية العربية المتحدة لإزالة البعثيين عن الحكم ودحر حرسهم القومي. أما الشعب فهو آخر من يعلم. لكن ما يعرف عن عبد السلام محمد عارف رغم جسارته وشجاعته، أنه قومي محافظ ولا يتسمُ بالحكمة وله ميول دينية وطائفية. تمكن القوميون من السيطرة على الوضع عن طريق الجيش وظلوا يعاملون الشيوعيين بقسوة وشدة، بينما كانوا يتعاملون مع البعثيين بأقل صرامة وبأكثر حذرًا كمنافسين لهم في المستقبل. تحسنت علاقتهم بعض الشيء مع عبد الناصر، ولكنهم لم يندفعوا بجدية في طريق الوحدة التي هي شعارهم الأساسي. كان الغرب بصورة عامة وأميركا بصورة خاصة مرتاحين لموقفهم السياسي ومشجعين لهم. لم يمارسوا ضد الطائفة الشيعية ضغطًا يُذكر أو اضطهادًا لأن الأعداء المتربصين لحكمهم كثيرون ومتنوعون وعلى رأسهم الشيوعيون والبعثيون.

لثلاث سنوات من حكم القوميين برئاسة عبد السلام عارف، ظل العراق يتمتعُ باستقرارٍ نسبي في الداخل وتوازن لا بأس به مع دول الجوار والعالم الغربي بصورة عامة. ولكن فجأة توفي عبد السلام عارف بحادث سقوط المروحية التي كانت تقله عند زيارته محافظة البصرة. ويُشاع أن العملية كانت مدبرة من قبل حزب البعث؟ تسلم أخوه رئاسة الجمهورية (وراثة عسكرية) وكان شخصًا مسالمًا ويعتبره العراقيون ضعيفًا. من أكثر رؤساء الوزراء الذين تسلموا هذا المنصب في عهد القوميين كفاءة وارتياح الرأي العام له، كان هو عبد الرحمن البزّاز الذي يعتبر أول رئيس وزراء مدني منذ اندلاع ثورة 14 تموز يحكم العراق وهو خبير في الشؤون القانونية. ومن وزراء الصحة البارزين في تلك الفترة كان الدكتور فؤاد حسن غالي الذي كان يتسم بالحكمة والبساطة وعدم التطرف. كانت علاقتي به جيدة وقد استدعاني مرةً وطلب مني أن أنتقل إلى مستشفى الطفل العربي الذي أنشىء حديثًا في كرادة مريم لأكون الطبيب الاستشاري الأول في هذا المستشفى الأكبر والأحدث في مدينة بغداد، بدلًا من البقاء في مستشفى الهلال الأحمر الصغير والمعزول عن قلب العاصمة بغداد. وافقت على ذلك ولم أطلب منه المزيد وهو ترشيحي للتدريس في الجامعة مع العلم أني أرغبُ في ذلك ومؤهل له، لأن شهادتي كانت أرفع الشهادات في طب الأطفال، وعندي

اندفاع للتدريس والبحث العلمي. وما دمنا فتحنا ملف الالتحاق بالجامعة، فعلينا أن نكمل القصة حتى النهاية! لأن ذلك يعطي القارىء الكريم الفرصة لمعرفة الخلط غير المقبول وغير المعقول بين القضية السياسية الضيقة من جهة، والمهنية العلمية الرحبة من جهة أخرى. في هذا السياق أتذكر أنه عندما سيطرَ حزب البعث على الحكم بصورة مطلقة بعد سنة 1968 وفسح المجال واسعًا وسريعًا لأعضاء الحزب بتسلم مراكز حساسة، كانوا في الواقع غير مؤهلين لتوليها . بدأوا بالمؤسسات العسكرية والأمنية ومن ثم الإدارية، وأخيرًا ركزوا على الكوادر الجامعية والتعليمية ومن ضمنها الكادر الطبي في بغداد. وفي هذا الإطار قام الحزب بخطى غير مباركة بإصدار قرار رئاسي يقضي بتقاعد قسري لـ 48 طبيبًا أخصائيًا وأستاذًا كفؤًا وهم دون السن القانوني للتقاعد وفي ذروة عطائهم العلمي والمهني، ولو كنت أنا في الجامعة لكنت واحدًا منهم.

في الحقيقة، كان موقفي من السلطة على العموم حرجًا وغير مريح، إذ كان عليَّ أن أختار بين ركب الانتهازيين وأصبح أستاذًا في طب الأطفال، أو أبقى محترمًا وأحافظ على مستواي العلمي بدون الالتحاق بالجامعة! وهذا هو ما حصلَ! لقد سلكت الطريق الطويل الوعر للوصول إلى هدفي، وهو البحث العلمي وتطوير مهنتي بعيدًا عن الأضواء. بعد فترة قصيرة أصبحت

المتسشار العلمي لوزارة الصحة في قضايا حملات التلقيح لجميع أطفال العراق والسيطرة على مرض الإسهال وقائيًا وعلاجيًا وتقليل نسبة وفيات الأطفال المرتفعة وخصوصًا عند الأطفال الرضّع، حيث هبطت نسبة وفيات الأطفال دون السنة حسب النشرة التي تصدرها دوريًا منظمة الصحة العالمية من 85 في الألف سنة 1985 إلى 35 في الألف سنة 1989. أتذكر أن وزارة الصحة عرضت هذه الأرقام الإيجابية التي أنجزتها على صدّام حسين الذي سألهم مستفسرًا عن هذه الأرقام في دول مثل بولندا ورومانيا فأجابوه حوالى 30 في الألف. فأمرهم بأن نصل إلى هذا الرقم عندنا بعد ثلاث سنوات وقال لهم بالحرف الواحد: أن إمكانيات هذه البلدان ليست أفضل من العراق. ولكن بعد أن دخلنا حرب الخليج الثانية مع الكويت ضاعَ الحساب والكتاب!!

كنت أقوم بمعالجة أطفال بعض الوزراء آنذاك، ولكنني في الحقيقة أحاول الابتعاد عن أن أكون أحد أطباء الكادر الطبي الذي شُكل أخيرًا لمعالجة القياديين في القصر والحزب، وكان مقر هذا الكادر مستشفى ابن سينا الكائن في كرادة مريم والقريب من القصر الجمهوري. أعتقد أن اسمي كان ضمن الكادر في البداية ولكني حاولت عدم الاستجابة بلطف وخلق أعذار وهمية حتى رفعوا اسمي من هذا الكادر الذي كان يتلهف على

الانتماء إليه أغلب الأطباء الاخصائيين وذلك للمكاسب الكثيرة التي كانوا يجنونها من هذه الخدمات البسيطة، وهي تشمل مبالغ كبيرة لتغطية زياراتهم لهؤلاء النُخبة. كما أن هناك هدايا ثمينة وسيارات جميلة يتلقونها في المناسبات الوطنية والحزبية، ناهيك عن السفرات المفتوحة لهم خارج العراق أثناء فترة منع السفر للمواطنين والأطباء الآخرين ومنهم كاتب هذه القصة.

طلبت منظمة الصحة العالمية بعد أن اطلعت على بحوثي المنشورة عن موضوع الإسهال عند الأطفال الرضّع، ترشيحي لزيارة مقراتها في الإسكندرية وجنيف ولندن. كانت مدة السفرة شهرين وعلى نفقة المنظمة. لم يكن لوزارة الصحة خيار غير القبول لأن نسبة وفيات الأطفال بسبب الإسهال كانت كما هو الحال في البلدان النامية مرتفعة جدًا. كانت هذه فرصة علمية كبيرة وترفيهية لي في الوقت نفسه لأن السفر خارج العراق ممنوع (والعتب مرفوع) في تلك الفترة، بسبب الحرب الدائرة رحاها بين العراق وإيران. كانت هذه السفرة شيقة أيضًا لأنها أتاحت لي الفرصة لمشاهدة صديقي العزيز وزميلي في كلية الطب الدكتور «فاروق برتو» الذي كان يشغل في سنة 1985 منصب نائب رئيس منظمة الصحة العالمية لفرع الشرق الأوسط. أتذكر أنه أبدى لي أسفه من أن وزير الصحة العراقي صادق علوش الذي كان يحضر كل الاجتماعات

السنوية للمنظمة في جنيف، لم يبلغه ولو مرةً واحدةً احتياجات القطر العراقي المهمة والكثيرة، لكي يحاول تحقيق أكبر قسم منها وبأسرع وقت ممكن علمًا أن العراق كان يستحق ويحتاج في الوقت نفسه إلى هذه المساعادات الطبية الضرورية غير المتوافرة، وخصوصًا خلال الحرب الدائرة بينه وبين جارته إيران والحقيقة لم يذكر لي الزميل السبب في ذلك، بل استنتجت بأن الوزير يتهيب التقرب من الشيوعيين القدامى. كما لاحظت أيضًا أن سيادة الوزير كان يظهر عدم الاهتمام أو التخوف من التقرب مني عند مناقشة واستعراض المشاريع الصحية للأطفال في وزارته التي كنت ألعب دورًا مهمًا في التخطيط لها وإنجازها.

عند رجوعي إلى بغداد بعد هذه السفرة، قدمت لي منظة الصحة العالمية منحة بمقدار عشرة آلاف دولار لسد نفقات بحث متكامل عن أسباب مرض الإسهال عند الأطفال في العراق وأفضل الطرق الحديثة لمعالجته. كنت فخورًا بأن أن أكون أول طبيب عراقي يتسلم هذا المبلغ الكبير من هذه المنظمة الدولية، الهادف إلى تقليل وفيات أطفال العراق. غير أن الحكومة بدلًا أن تشجعني لأكون قدوة لزملائي، أثارت لي مشكلة أو بالأحرى مهزلة إذ حوّل المصرف المركزي المبلغ المذكور بالسعر الرسمي بدل سعر صرفه في السوق المحلية في تلك الفترة، فبدلًا من أن أتسلم مبلغ 8000 دينار عراقي تسلمت 3000 دينار فقط!

رغم إتمام البحث ونشره وتطبيق طريقة «الإمهاء الفموي» التي كانت أحد الأسس الرئيسة في نجاح هذا البحث الباهر عند تطبيقه في جميع المؤسسات الصحية في العراق، مما أدى إلى هبوط ملموس في نسب معدل وفيات الأطفال في القطر، بينما لم أتلقَّ أي شكر أو اهتمام من وزارة الصحة تقديرًا وتشجيعًا للعلم والمعرفة!

بعد وقت طويل، تسلمت رسالة في سنة 1988 عن طريق وزارة الصحة وبتوقيع مدير عام الصحة الدولية، تذكر فيها أن منظمة الصحة الدولية طلبت من وزارة الصحة ترشيح طبيب أطفال عراقي يتمتع بكفاءة علمية عالية المستوى، وله بحوث منشورة وساهم في تقليل وفيات الأطفال للمشاركة في اختيار أفضل طبيب أطفال في العالم ساهم بكل هذه الفعاليات من أجل تقديم جائزة عالمية كبرى بمناسبة الاحتفال بيوم الطفل العالمي لتلك السنة. بعد هذه المقدمة تذكرت وزارة الصحة بأنها وجدت أني الشخص المؤهل الوحيد لتمثيل العراق في هذه المسابقة الدولية التي يشارك فيها 180 بلدًا. قدمتُ المعلومات والشهادات المطلوبة إلى المنظمة عن طريق وزارة الصحة، ولكن لم أفز بالمرتبة الأولى لنيل الجائزة لأن هناك كثيرًا من العباقرة الذين هم أجدرُ مني في هذا المجال. السؤال الذي يطرح نفسه وبإلحاح الآن، هو أن وزارة الصحة اعترفت رسميًا بأني أفضل طبيب في القطر وحائز مواصفات

عالمية في مجال طب ورعاية الأطفال. إذًا ما هو السبب الحقيقي الذي جعل السلطة تغلق الباب بوجهي للتدريس في الجامعة، وهي تدرك أن هذا هو المكان الأمثل لتطوير مقدرتي العلمية والبحثية، وكذلك توسيع دائرة اتصالي وتفاعلي مع أكبر عدد من الأطباء والتلاميذ الموجودين في محيط الجامعة الرحب؟؟

وباء الهيضة (الكوليرا) في العراق

حدث هذا الوباء سنة 1966 حين كان وزير الصحة الدكتور فؤاد حسن غالي الذي اتخذ جميع الخطوات اللازمة للسيطرة على هذا الوباء القاتل، الذي يسبب جفاف الأنسجة في جسم المريض نتيجة فقدان السوائل والأملاح عن طريق الجهاز الهضمي، ناهيك عن الأضرار التي تُصاحب وجود هذا الوباء في البلد الذي يعزل عن بقية أنحاء العالم. استدعت وزارة الصحة منظمة الصحة العالمية الخبيرة في هذا المجال مبكرًا للإشراف والسيطرة على هذا الوباء، كما أنها اختارت الكوادر الطبية المحلية الكفوءة لعلاجه. أُختير الدكتور محمود ثامر رئيسًا للكادر الطبي الذي يُشرف على علاج البالغين من المرضى، في الوقت الذي كنت رئيسًا للفريق الطبي لمعالجة الأطفال دونَ الثانية عشرة من العمر. كما أن الدكتور سعدون خليفة التكريتي لعبَ دورًا إعلاميًا هامًا في حملة السيطرة على هذا الوباء.

أُتخذَ مبنى مستشفى الثويثة للأمراض الصدرية (الكائن في منتصف الطريق بين مدينة بغداد وناحية سلمان باك) مركزًا لعلاج المصابين في مدينة بغداد وضواحيها،

كذلك أُتخذ المستشفى الواسع نفسه محلًا لحجز أعداد كبيرة من الملامسين للمرضى في أجنحة خاصة منفصلة عن المركز العلاجي.

كانت الحملة ضد هذا الوباء ناجحة وقائيًا وإعلاميًا وعلاجيًا. نسبة معدلات وفيات المرضى بهذا الوباء كانت متدنية جدًا عند البالغين والأطفال، بالمقارنة بالمعدلات التي تنشرها منظمة الصحة العالمية بصورة دورية.

قدمت مع زميلي محمود تامر نتائج الطرق العلاجية الحديثة التي استعملت بنجاح في معالجة هذا المرض ومضاعفاته السريرية المختلفة في المؤتمر السنوي للجمعية الطبية العراقية، وحزنا جائزة أفضل بحث لتلك السنة. وقدم الجائزة لنا رئيس الوزراء طاهر يحيى. كما نشر الجزء الوبائي للبحث في مجلة «لانست» الطبية البريطانية.

ولادة ابنتي الثانية
ياسمين سنة 1968

كانت ولادتها لي ولزوجتي حدثًا كبيرًا وفرحة لا توصف لأختها سلمى لأنها ستكون صديقتها في المستقبل. كانت الولادة طبيعية والأمور سائرة على ما يرام حتى اليوم السابع من عمرها حيث أصيبت بإسهال حاد، صاحبه جفاف شديد وخلال عشر ساعات أصبحت حالتها خطرة، إذ اضطررنا إلى إدخالها مستشفى عبد المجيد حسين الكائن في الكرادة الشرقية والقريب من دارنا.

كان هذا الحدث قمة التحدي لي كوالد وطبيب استشاري في طب الأطفال في الوقت نفسه. كنت أعرف حق المعرفة خطورة هذا المرض في هذا العمر المبكر حيث كانت نسبة الخطر تراوح بين 10 و 15% حتى في الولايات المتحدة في تلك الفترة من الزمن. توكلت على الله وبدأت في رسم خطة العلاج. واجهتني أول مشكلة وهي أن طاقم المستشفى من ممرضات وأطباء مقيمين لم يتمكنوا من الحصول على الوريد اللازم لإعطاء السوائل والأملاح المعدنية بأسرع وقت ممكن. بقي عندي خياران، الأول هو

إجراء عملية قص الوريد في قدمها الصغيرة جدًا، أو استعمال طريقة زرق السوائل بكميات متوسطة الحجم تحت الجلد بعد إضافة مادة (الهايليس) التي تساعد على تسريع عملية الامتصاص البطيئة عن هذا الطريق. وقد بدأت في تنفيذ الخيار الثاني وقمت بنفسي بتحضير السوائل اللازمة وزرقها بكميات كافية في مناطق مختلفة من جسمها طوال الليل حتى تمكنت من زرق أكثر من(400 سم3) في أقل من 12 ساعة. أخذت صغيرتي ياسمين تتقبل السوائل عن طريق الفم تدريجًا وبدأ الدمُ يتدفق في وجهها الصغير. في اليوم التالي نقلناها سالمةً إلى دارنا.

تداولتُ وزوجتي بعد رجوعنا من المستشفى فكرة محاولة عمل إنساني خير يستفيد منه الفقراء بعد أن ساعادنا الله على إنقاذ طفلتنا، وهذه الالتفاتة تُسمى عند عامة الناس بـ (النذر). قررنا شراء ثلاثة خراف كبيرة الحجم ذُبحت أمام دارنا وطلبنا من القصّاب تقسيمها إلى قطع صغيرة. قررنا أن أكثر مجموعة من الناس قد تفرح بهذه الهدية المتواضعة هي عمال وحراس مستشفانا (الطفل العربي) الذي أشتغل فيه. كان عدد هؤلاء 62 فردًا من النساء والرجال، يُعطى الأعزب منهم قطعة واحدة والمتزوج قطعتين والشخص الذي عنده أطفال ثلاث قطع.

في اليوم التالي حملت هذه الكمية الكبيرة من اللحم بسيارتي إلى المستشفى وأشرفت بنفسي على توزيعها،

وعلى ضوء المبدأ الاشتراكي الإنساني الذي ابتدعناه! قد يبدو هذا العمل مضحكًا لبعضهم وعملًا رجعيًا لبعضهم الآخر. ولكننا ارتحنا نفسيًا لهذا الجهد الإنساني البسيط ولو أني قمت بتنفيذه بطريقة بدائية!

جمعية تنظيم الأسرة

هذه الجمعية ترعاها وتمولها إحدى لجان الأمم المتحدة التي تعنى بصحة الأم والطفل. وافقت الحكومة العراقية على فتح مركز لها في العراق على أن يُنتخب أعضاء اللجنة العليا من الكادر الصحي والمعنيين في المجتمع بقضايا متعلقة بهذه المواضيع.

كنت أحد أعضاء اللجنة العليا المنتخبة التي كان يرأسها الدكتور فؤاد حسن غالي وزير الصحة السابق، ومن أعضائها الدكتور سعدون التكريتي وكان معنا في اللجنة أحيانًا الدكتور رياض ابراهيم قبل استيزاره.

أهم أهداف هذه اللجنة هو مساعدة الأم الراغبة في تحديد النسل وذلك يتم بإطلاعها على ما استجد من أساليب حديثة في هذا الجانب، ومنها استعمال الحبوب المانعة للحمل التي تُمنح لها مجانًا، أو إجراء عملية شد عنق الرحم إن كان ذلك ضروريًا. كما أنها تُشرف على عيادات خاصة لمعالجة النسوة المصابات بالعقم بعد الاستقصاء السريري والمختبري عن أسبابه. كما هناك فعاليات أخرى تقوم بها كتشجيع الرضاعة الطبيعية، وحث

النساء الحوامل على مراجعة مراكزها المنبثة في معظم أنحاء القطر لفحصهن بصورة دورية. وفي كثير من الأحيان تُعقد ندوات علمية مختلفة يشارك فيها الخبراء المحليون والعالميون لمناقشة الأهداف التي ذكرتها سابقًا.

علمت في أحد الأيام من أحد أعضاء اللجنة العليا أنهم قابلوا الرئيس البكر لمباركة أعمال هذه اللجنة. وعند الاجتماع به أبلغهم عدم تشجيع أو تسهيل الأمر للأمهات في كيفية منع الحمل لكون البلد يواجه أعداء من الغرب والشرق (يقصد إسرائيل وإيران). طبعًا لم يجرؤ أحد من أعضاء اللجنة على مناقشته في هذا الأمر وإفهامه أن قوة البلد في هذا الزمان لا تعتمد على التعداد السكاني، بل على مدى تطوره العلمي والتقني والاقتصادي. فإسرائيل خير مثال على ذلك فهي لا تتجاوز الخمسة ملايين نسمة، بينما العرب يزيدون على 300 مليون نسمة. ومع هذا البون السكاني الشاسع، لم يتمكن العرب من دحرهم عسكريًا في جميع الحروب التي حدثت في الأربعينيات والستينيات وحتى السبعينيات. شعارنا القديم البالي الذي يقول (السيف أصدق إنباءً من الكتب) سقط منذ زمن بعيد! أصبح التضخم السكاني ظاهرة عالمية معقدة تتطلب الاهتمام والتعاون والتنسيق بين الأفراد والحكومات، لأن النمو السكاني متدني المستوى في البلدان الغنية والمتحضرة بينما نجده مرتفعًا في البلدان الفقيرة والمستهلكة التي مستواها الثقافي والاجتماعي منخفض. فعلى صعيد الدول الأميركية الشمالية

والأوروبية نجد أن النمو السكاني منخفض جدًا وأحيانًا يوازي الصفر (بمعنى أن عدد المواليد يساوي عدد الوفيات في تلك البلدان) ولهذا تمكنوا من المحافظة على مستوى ثقافي ومعيشي مرتفع مع حفاظ البلد على قوته العسكرية والاقتصادية. وكذلك نرى الصين الدولة العظمى التي يبلغ سكانها حوالى خمس سكان العالم، فرضت القوانين القسرية لتحديد النسل بصرامة (طفل واحد لكل عائلة) لكي تتمكن من الالتحاق بركب الدول العظمى المتقدمة في العالم. كانت نسبة النمو السكاني في العراق في فترة السبعينيات تراوح بين 3 ـ 3.5%. المصيبة أن الحكومات المتعاقبة في تلك الفترة بدل أن تزيد وعي الجماهير للسيطرة على هذه المشكلة، نراها تفعل العكس فتمنع بيع حبوب منع الحمل للنساء أثناء الحروب الطويلة إلا بوصفة طبيب أخصائي في الأمراض النسائية وبموجب استمارة خاصة. لذلك نشاهد أن عدد سكان العراق قد تضاعف من 15 مليون نسمة في أواخر السبعينيات إلى حوالى 30 مليون نسمة في الوقت الحاضر.

لقد ذكرت سابقًا أن البكر يهتم بمشاكل الصحة العامة ويُشرف عليها بصورة غير مباشرة. أحد الأيام وفي منتصف السبعينيات، وصلت إلي دعوة من وزارة الصحة لحضور اجتماع موسع لنخبة كبيرة من أساتذة الطب والاختصاصيين في جميع فروع الطب لمناقشة موضوع توفير الدواء الجيد لجميع المواطنين. افتتح الجلسة المنعقدة في مدينة الطب

الرئيس البكر بحضور وزير الصحة الدكتور عزت مصطفى والمدراء العامين في وزارته. حث الرئيس الأطباء على تقديم أفضل الأدوية للمواطنين مهما كان منشأ الدواء، ولكن في الوقت نفسه طلب منهم تشجيع استعمال أدوية سامراء الوطنية التي قال عنها إنها تتصف بالجودة والسعر المناسب. طال الحديث والنقاش حول هذا الموضوع أكثر من ساعتين. قبل ختام الجلسة طلب الدكتور يوسف النعمان جراح القلب المشهور الإذن من الرئيس أن يلقي نكتة حول الموضوع فأذن له البكر ضاحكًا. قال يوسف: يُقال أن أعرابيًا ذهب إلى صيدلية الشفاء المشهورة في بغداد لشراء حبوب أسبرين جيدة الصنع ومن الدرجة الأولى لأجل علاج الصداع المزمن الذي يشكو منه. أمر الصيدلي مساعده بجلب قدحين مملوءين بالماء مع حبة اسبرين «باير» المانية الصنع وحبة ثانية من الأسبرين المصنّع في سامراء. ألقى الصيدلي حبة في كل قدح ماء. الأولى ذابت خلال ثوانٍ واختفت بينما الثانية نزلت وبقيت في قعر الإناء. أردف الصيدلي قائلًا له: شفت بعينيك أن الحبة الأجنبية اختفت فورًا (وهي فاشوشية)، بينما حبة منتوجات سامراء الوطنية ظلت صامدة بدون ذوبان وممكن أن تبقى في معدتك مدة طويلة، ويمكنك أن تأخذ حبة واحدة تقيك الصداع طوال اليوم!! اقتنع المريض بذلك واشترى كمية كبيرة من هذه الحبوب له ولزوجته. ضحك الرئيس والجميع لهذه النكتة قبل انتهاء الاجتماع.

الغريب جدًا أن أشاهد قصة من الواقع مطابقة تمامًا لنكتة يوسف أمام الرئيس في مدينة الطب، ولكن هذه المرة في الردهة الرابعة من مستشفى الطفل العربي! بعد أسبوعين أو ثلاثة من تاريخ الجلسة التي ذكرتها، وبينما كنتُ أقوم بالجولة الصباحية المعتادة في الردهة مع الطلاب والأطباء المقيمين، شاهدت أحد الممرضين الذين كانوا يشتغلون بمعيتي في مستشفى الشعب ينتظرني مع طفله لكي أفحصه. بعد انتهاء الجولة استدعيته بينما لا يزال الطلاب والمقيمون حولي قائلًا له: ما الخبر فأجاب: إن محمدًا مصاب بداء الدودة الوحيدة ولم يتمكن الأطباء من شفائه، لذلك أتيت به إليك لهذا الغرض. كانت هذه فرصة ثمينة لتدريس التلاميذ هذه الحالة النادرة التي قلما يشاهدونها في الردهات، لأنها تعالج عادة في العيادة الخارجية. أعطيته الدواء اللازم وكان على هيئة حبوب تُصنع في ألمانيا. وأوصيته بأن يأخذ الطفل مسهلًا قبل الدواء بيوم ويأخذ جرعة ثانية منه في صباح اليوم التالي، ويأخذ الحبوب بعد أربع ساعات، كما عليه مراقبة الغائط وجلبه إليَّ للتأكد من مشاهدة رأس الدودة المفروض أن تخرج من جسمه، وإلا علينا أن نكرر العملية المعقدة بعد أسبوعين. لم يمض سوى ثلاثة أيام إلا وأبو محمد قد عاد حاملًا إناءً مغلقًا وهو ينتظرني عند باب غرفتي، استبشرت بأنه التزم بدقة تفاصيل العلاج لذلك دعوت الأطباء لمشاهدة رأس الدودة الوحيدة.

عندما فتح الإناء وهو يبتسم كان في قعره حبتان زرقاوان.

قلت له ما هذا؟ أجاب عندما ذهبت إلى الصيدلي قال لي إن هذا الدواء لا يستورد في الوقت الحاضر، ولكن عندنا البديل والمصنع في معمل أدوية سامراء. هذا هو ما تشاهدون! إن معدته لم تتمكن من إذابتها يا دكتور!!

فورمشاهدتي ذلك طلبت التكلم على الهاتف مع المدير العام المسؤول عن الأدوية في الوزارة، الذي كان جالسًا معنا في الندوة وسمع نكتة الدكتور يوسف حول أدوية سامراء. شرحت له الأمر، فقال لي متوسلًا: دكتور مهدي أرسل لي والد المريض إلى الوزارة لكي أعطيه الدواء الأصلي فور وصوله، وسأحقق في هذا الموضوع وأتخذ الإجراءات اللازمة، قبل أن يصل الخبر إلى رئيس الجمهورية وتنكسر حينذاك رقاب كثيرة!

الانتماء إلى النوادي والجمعيات الترفيهية

عندما تخرجت من الثانوية وأصبحت طالبًا في كلية الطب، شعرت بحاجة ماسة للانتماء إلى جمعية أو نادٍ رياضي بدل ارتياد المقاهي والبارات الشعبية. كنت محظوظًا بأن تكون جمعية الشبان المسلمين في الصالحية الكائنة بجوار مبنى الإذاعة قريبة من دارنا. بسهولة أصبحت عضوًا فيها وكانت الجمعية واسعة ورحبة وحديقتها جميلة ومزدهرة بالإضافة إلى ساحة التنس وأخرى لكرة الطائرة. يقدم الحانوت الشاي والقهوة والمرطبات فضلًا عن تقديم المشويات في المساء. لا يوجد مُصلى خاص للأعضاء. ولكن إذا رغب أحد منهم فبإمكانه أن يصلي في زوايا الحديقة أو في القاعة الرئيسية. الواقع أن الممارسات الدينية في الجمعية كانت محدودة جدًا بينما الفعاليات الترفيهية والرياضية مفتوحة بصورة واسعة.

علمت أن هذه الجمعية كانت جزءًا من فعاليات الطائفة السنية التي بدورها تشرف على مجلس إدارة مدرسة التفيض الأهلية كما هو الحال في المدرسة الجعفرية، التي

كانت تُدار من قبل نخبة من الطائفة الشيعية. الجميل في الأمر أنه كان هناك تنافس في العلم والرياضة والاجتماع ولكن بدون أي تطرف طائفي. كان الأستاذ حسن رضا هو الرئيس لجمعية الشبان المسلمين كما أنه يقوم برئاسة محكمة التمييز في العراق. اكتسبت كثيرًا من الأصدقاء بالتردد إلى هذه الجمعية منهم عبد الرحمن صالح الراوي وغالب العاني وعبد القادر القاضي وصديق العمر عبد الجبار البياتي. بعد أن رجعت من الولايات المتحدة إلى العراق بدأت أبحث هذه المرة عن نادٍ عائلي يتلاءم مع مستواي الاجتماعي والثقافي. كان هناك خياران: الأول هو نادي المنصور الكائن في جانب الكرخ، ونادي العلوية الواقع في جانب الرصافة. اخترت نادي العلوية لكونه الأقرب لدارنا ولكن الحصول على عضويته كان أكثر صعوبة. ذللت تلك الصعوبات والمتطلبات وأصبحت أحد المنتمين إلى ذلك النادي سنة 1966. جُل أعضاء هذا النادي قبل ثورة 14 تموز كانوا من الأجانب وأعضاء السلك الدبلوماسي، وقلة من أهالي البلد وأغلبهم ينتمون إلى الطبقة الحاكمة أو الاستقراطية في العراق. بعد ثورة 14 تموز أخذ النادي يقبل في عضويته نسبة أكثر من المواطنين العراقيين كأعضاء مختارين حسب مقاييس خاصة لها علاقة بتحصيلهم العلمي أو قيمتهم الاجتماعية والمادية وغيرها!

كانت الخدمة في هذا النادي جيدة والمأكولات لذيذة

وأنواع المشروبات متوافرة والحفلات الترفيهية متنوعة والطابع الإنكليزي المحافظ ظلَّ هو السائد حتى عند انتسابي إليه. فمثلًا يجب لبس الرباط عند دخول النادي في النهار وحتى في موسم الصيف. أتذكر حادثة معينة قد تعطي فكرة للقارىء عن شدة الالتزام بهذه التقاليد المحافظة! دخل وزير النفط العراقي سعدون حمادي والمنتمي حديثًا إلى النادي عصر أحد الأيام الحارة وهو يرتدي قميصًا بدون رباط. فتوجه نحوه (دنخة) وهو أحد مستخدمي النادي لإخباره بأن يخرج من النادي لأنه بدون رباط! لكنني اعترضته وهو في الطريق إليه وأفهمته أنه وزير ثورة ولا يعرف تقاليد النادي، ويجب أن تخبره الإدارة بتسليمه رسالة مؤدبة تشرح له ذلك عند مغادرته النادي . فامتثل لذلك وحُلت المشكلة!

الجدير ذكره في هذا الشأن، أن الخدمات وتقاليد النادي تدهورت بسرعة في الثمانينيات والتسعينيات حتى أن بعض الأعضاء باتوا يدخلون النادي مساء بدشاديشهم البيضاء وبدون أي اعتراض (هيله أحد يفك حلكَه!). بهذه المناسبة أذكر أن الطبقة المتوسطة في بغداد تحسن مستواها المادي والاجتماعي في السبعينيات بسبب ارتفاع الواردات النفطية، لذلك افتتحت نوادٍ أخرى على مستوى مرتفع مثل نادي الصيد ونوادٍ مهنية أخرى كثيرة ذات مستوى مقبول. وبعد حين افتتح نادي الزوارق الأرستقراطي في الجادرية

وعلى ضفاف نهر دجلة الهادىء الجميل وبجوار قصور أغلب شخصيات الطبقة الحاكمة في العراق. أصبح برزان التكريتي رئيس المخابرات رئيسًا للنادي، وكانت عضوية النادي محصورة فقط بعائلة صدام ونخبة محدودة من قيادة الحزب الحاكم.

بين الجد والهزل

في أحد الأيام عرضت في إحدى قاعات مدينة الطب نتائج حملة تلقيح كبرى قامت بها وزارة الصحة ورعتها منظمة الصحة العالمية. بعد عرض النتائج، كان المقرر أن تُقدم جائزة ثمينة للمحافظة التي تم فيها تلقيح أعلى نسبة مئوية من الأطفال. بعد عرض النسب المئوية للأطفال الملقحين في كل محافظة أمام الأطباء والمسؤولين عن هذه الحملة الشاملة، ظهرَ أن النسبة المئوية للأطفال الملقحين في محافظة صلاح الدين كانت متدنية جدًا.التفتُّ مداعبًا الدكتور سعدون التكريتي الجالس بجانبي:

سعدون شلون هاذي المحافظة مالتكم صارت بالجعب (في القعر).

أجابني سعدون بلهجة جادة قائلًا: مهدي، موكافي أن هذه المحافظة طلعت إلكم صدام حسين!!

الواقع إني فوجئت بهذا التعليق وإقحام صدام حسين في هذا الموضوع!!

أجبته: والنعم وأتمنى أن سكان المحافظة تمتثل به!

إني متأكد أن الأخ سعدون لم يقصدْ إحراجي أو الإساءة إليَّ لأن علاقتي به جيدة وكنت طبيب أطفاله، لكن المعروف عنه أنه أحيانًا يمزج الجد بالهزل بطريقة لبقة وذكية، وأحيانًا محرجة كما فعل بتعليقه الذي ذكرته.

الجمعية التأسيسية لجامعة الكوفة

اجتمعت نخبة كبيرة من مثقفي الشيعة في بغداد سنة 1967 يسندهم عدد كبير من وجهاء البلد، بغية إنشاء جامعة أهلية (غير حكومية) في مدينة الكوفة إحياءً لذكرها التاريخي العريق، على نمط ما كان موجودًا على الساحة العراقية الثقافية من مدارس كالجعفرية والتفيض الأهليتين اللتين كانتا تتنافسان وتتكاملان مع القطاع العام في هذا الشأن بدون أن يكون لهما طابع سياسي. بعد فترة قصيرة ازداد بوتيرة سريعة عدد المشاركين والمشجعين لهذه الفكرة وخصوصًا بين أبناء الطبقة المثقفة والمتنورة الشيعية، التي ازداد عددها ونفوذها في المجتمع أخيرًا. كما لاحظتُ أن رجال الدين لم يكن لهم ذكر أو فعالية في هذا الشأن، حتى أن المرجعية في النجف الأشرف ولو أنها باركت هذه الخطوة، لكن بدون حماسة ظاهرة لأن الأغلبية الساحقة من أصحاب هذه الفكرة هم من العلمانيين. جرت اجتماعات كثيرة بخصوص هذا المشروع وتبرع له الآلاف من الشخصيات بمبالغ كبيرة من النقود والأموال. وكنت أحد المتبرعين بمبلغ 200 دينار. تمكنت الجمعية من الحصول

على الأراضي اللازمة في الكوفة لتأسيس المبنى الرئيسي لها، كما استكملت الخرائط الهندسية لتصميم الأبنية الرئيسية لهذه الجامعة. وأتذكر أن قسمًا من أعضاء الهيئة المؤسسة ظهروا على شاشة التلفاز العراقي موضحين للرأي العام العراقي أهداف هذه المؤسسة التعليمية التي ستكون رديفًا للقطاع الحكومي في رفع المستوى العلمي والثقافي في البلد. بعد فترة وجيزة تقدمت الجمعية المؤسسة للجامعة برئاسة الدكتور المهندس محمد مكية بطلب إجازتها من وزارة الداخلية، وكان الوزير المسؤول للبت في هذا الأمر هو «رجب عبد المجيد». وكان رئيس الوزراء آنذاك «ناجي طالب». تمت الموافقة الرسمية ولكن الجامعة لم تر النور نتيجة سقوط نظام عبد الرحمن عارف بعد فترة وجيزة من تاريخ إجازتها بانقلاب عسكري قامت به مجموعة من الضباط القوميين الذين كانوا تحت إمرته بالتنسيق مع حزب البعث الاشتراكي.

يتساءل المرء عن كيفية ظهور فكرة جامعة الكوفة في تلك الفترة بالذات! وكيف تبلورت بسرعة فائقة بين أفراد الطائفة الشيعية، خصوصًا الطبقة المتوسطة والبرجوازية الصغيرة منها والكبيرة؟ أعتقد أن وضع الطائفة كان بصورة عامة مريحًا قبل ثورة 14 تموز حيث إنهم في الوقت الذي كان يسيطر أخوانهم السنّة على أغلب مقاعد الحكم، كانوا هم يتمتعون بتفوق ملموس في بقية مراكز القوى المهمة

المسيطرة على المجتمع العراقي، مثل الاقطاع والسوق المالية والتجارية حيث كانت سيطرتهم على هذه القطاعات تتناسب مع حجمهم السكاني. هذا التوازن اختل بعد ثورة 14 تموز التي أزالت النظام الإقطاعي بصورة مطلقة. كما أن ظهور حكومات عسكرية مركزية غير منتخبة بعد انقلاب 14 رمضان بدأ بدوره بالتضييق على حرية وحركة السوق التجارية، كما عملت على تأميم بعض الصناعات الخفيفة الناشئة مقلدةً بذلك الرئيس المصري عبد الناصر. كل هذه المتغيرات المفاجئة والسريعة والمتلاحقة أحدثت ضغطًا اقتصاديًا واجتماعيًا تراكميًا أدى إلى تهميش وعدم إتاحة الفرصة لهذه الطائفة الكبيرة للمشاركة بنسبة موازية لحجمها السكاني في اتخاذ القرارات السياسية المهمة لهذا البلد.أعتقد أن إثارة موضوع إنشاء جامعة الكوفة يعتبر إشارة مهذبة من الشيعة إلى إخوانهم السنّة كأنهم يقولون لهم: لا تنسوا حصتنا يا أخوان!!

دار الأحلام

كنت أحلم منذ نعومة أظفاري بأن أُشيد دارًا على ضفاف شاطىء دجلة، وبالذات في كرادة مريم (الگاورية) الموقع الذي كنت أتردد إليه وأنا صغير مع حاشية جدي وأصدقاء عمي حيث أتمتع بالهواء الطلق البارد في الصيف، وأسبح على شواطئه الرملية، وأتذوق طعم فاكهته الطازجة، وأسمع في الصباح أغاريد الطيور والبلابل. جاء هذا اليوم في سنة 1968 عندما أراد الوزير السابق في العهد الملكي «ضياء جعفر» بيع قطعة أرض مساحتها 1100 متر مربع كائنة مباشرة على ساحل النهر. كان هذا الموقع يبعد حوالى 200 متر شرقًا عن دار نوري السعيد السابقة والمسافة نفسها غربًا عن بيت الوصي عبد الإله. فاتحت ابن العم المهندس محمد مكية بهذه الصفقة فقال لي: مهدي! لا تفوت هذه الفرصة النادرة وأنا سأكون الشريك لك والمهندس في هذه الصفقة!

اتفقت مع وكيل البائع على المبلغ وكان السعر 8 دنانير عن كل متر مربع. قطعة الأرض مستطيلة الشكل جبهتها على النهر 21 مترًا وطولها (نزالها) 50 مترًا.

سيواجه المهندس في مثل هذه الحالة بعض الصعوبات الفنية، لأن كل دار بعد الفرز المناصف سيكون لها 10,50 أمتار فقط كجبهة على النهر. بالنسبة إلى محمد رئيس قسم الهندسة المعمارية في جامعة بغداد سوف لن تكون هناك مشكلة عسيرة الحل! إنه صمم كل دار بثلاثة طوابق، وبدلًا من أن يجعل الحديقة في مقدمة الدار (جبهة النهر) كما هو المألوف في معظم الدور التي تُشاد على ساحل النهر، جعلها في الخلف فاصلًا إياها عن ضوضاء الشارع المحاذي لها من الخلف، وهكذا تمكن من أن يجعل جميع الغرف المهمة ومن ضمنها الصالة الرئيسية والشرفة (البلكون) تشرف على نهر دجلة مباشرة. كانت هندسة كل دار تختلف حسب احتياجات ورغبة كل واحد منا. صمم الديكور الداخلي لداري مهندس الديكور «عصام المدفعي» انتقلنا إلى دارنا الجميلة الجديدة ربيع 1972. قررت أن أتمتع بعطلة يومين أسبوعيًا بدلًا من يوم واحد لكي أقضي وقتًا أطول في التمتع بالسباحة على ساحل الجزيرة الرملية المقابلة لدارنا. كان شارع أبو نواس الجميل بأضوائه الباهرة المتلألئة ينعكس على أمواج نهر دجلة فتزداد جمالية ليالي بغداد وخصوصًا المقمرة منها. زاد من تعلقنا بهذا المسكن أن أحد أصدقائي الأعزاء وزميلي في المستشفى الدكتور «باسل محيي الدين» استأجر دارًا مجاورة لنا، وكانت زوجته الهولندية «بيا» صديقة لزوجتي وبناته الثلاث

صديقات لبناتي. كان باسل يعشق الماء والنهر والطبيعة، وزيادة على ذلك عنده زورق بخاري جميل وبذلك أتاح لنا الفرصة للقيام برحلات ليلية وصباحية أحيانًا بصورة مستمرة.

لم يدم الحلم طويلًا! ففي نهاية سنة 1973 أي بعد حوالى 15 شهرًا من انتقالنا إلى دارنا الجديدة تلقينا كتابًا أسود (لكن على ورق أبيض) فحواه هو الاستعداد لمغادرة الدار لأن المنطقة سوف تستملكها مصلحة السياحة لإقامة كورنيش وحديقة عامة لتسلية وترفيه جماهير الشعب. كإنسان متحضر أتفهم وأتقبل وجود مصلحة عامة فوق المصلحة الخاصة حتى إذا كان الأمر يتعلق ببيت السكن الذي يعتبر مقدسًا أدبيًا وقانونيًا، والذي يفقد تلك الحصانة أمام المصلحة العامة وهذا يحدث في البلدان المتحضرة. وهنا تذكرت مقطعًا لأغنية محمد عبد الوهاب «وتعطلت لغة الكلام» وآمنت بالقدر المحتوم!!

الأمر المزعج والمحزن أنه لم يكن هناك كورنيش ولا بارك (ولا هم يحزنون)! كل ما حدث أن الدور وُزّعت على المقربين من القصر والطبقة الحاكمة الجديدة فسكن داري الضابط «عدنان طلفاح» ابن خال صدام، الذي أصبح بعد فترة وجيزة وزيرًا للدفاع. وسكن دار جاري باسل مفوض الشرطة «أرشد ياسين» المتزوج أخت صدام حسين، وشغل الدار المجاورة لنا من الجهة الثانية وكانت لعائلة الأزري الملازم «صباح مرزا» مرافق صدام.

لا يمكن من الناحية العملية الاعتراض على عملية الاستملاك أو على السعر المقرر للشراء، وتذكرت بيت الشعر الذي ينطبق على حالي والذي يقول:

إلى الماء يسعى من يغصُّ بلقمةٍ

إلى أين يسعى من يغصُّ بماءٍ؟

كان تقدير داري أرضًا وبناءً بـ 50,000 دينار. رحت أبحثُ عن قطعة أرض بديلة حال معرفتي بأمر الاستملاك، وتمكنت من الحصول على واحدةٍ في الكرادة الشرقية في منطقة الجادرية مقابل جامعة بغداد. استأجرت دارًا موقتة قريبة من قطعة الأرض لمدة سنتين حتى الانتهاء من بناء الدار الجديدة. حاولت ان تكون هذه الدار مريحة ومرافقها متكاملة وقد نقلت إليها جزءًا من ديكورات وأثاث بيتنا في كرادة مريم. أشرف على هندسة هذه الدار المهندس البارع وصديقي «مهدي الحسني». وقد ساعدني على توفير المواد الصحية الجيدة وأجهزة التبريد المركزية الشحيحة أو المفقودة أحيانًا في السوق المحلية، علاقتي بوزيري التجارة آنذاك (الكوني طبيب أطفالهما) وهما «حكمت العزاوي» و«حسن علي». وكانا في الواقع يستجيبان لمطالبي البسيطة وخصوصًا بعد أن سمعا بهجرتي القسرية من داري في كرادة مريم.

لم أنس أن أستقصي ماذا حدث لداري القديمة بعد سقوط النظام، علمًا أن منطقة كرادة مريم التي سُميت الآن بالمنطقة الخضراء، كانت في السابق منطقة مُغلقة لمكاتب

الحزب ودورًا سكنية لقسم كبير من قادته. ذهبت مع زوجتي صباح أحد الأيام إلى البوابة الرئيسية لهذه المنطقة المحتلة التي كان يحرسها الجيش الأميركي وقابلنا الضابط المسؤول، وبعد أن تعرف عليَّ وتفحص مليًا هويتينا، أفهمناه أن لدينا دارًا سكنية في هذه المنطقة أُجبرنا على تخليتها والآن نود أن نرى ماذا حلَّ بها. أرسل الضابط معنا سيارة عسكرية أميركية بصحبة مجندة مسلحة ترافقنا إلى الموقع الذي توجد فيه الدار. الغريب أن المنطقة المحيطة بدارنا تغيرت كليًا خلال الثلاثين عامًا الماضية والأشجار أصبحت باسقةً وظهرت عمارات ودور جديدة منتشرة في البساتين القديمة، وبصعوبة تمكنا من رؤية شرفة الدار البارزة على جبهة النهر التي كانت علامة فارقة! دخلناها بصحبة المجندة وكانت هناك لوحة بجانب الباب كتب عليها اسم الشخص الذي كان يسكنها قبل السقوط وهو المقدم (أسعد ياسين) أخ المرافق الأقدم لصدام أرشد ياسين. فتح الباب أحد الضباط الأميركان وسمح لنا بالدخول لمشاهدتها بأثاثها الجديد. تم تركناها راجعين بعد أن قدمنا المعذرة لإزعاجه. علمنا بعدئذ أن عددًا كبيرًا من المواطنين غادروا ديارهم في هذه المنطقة بالطريقة نفسها التي استعملت معنا، وأنهم قدموا شكوى إلى المحاكم الخاصة لإبطال عملية الاستملاك القسرية لبيوت سكناهم. لهذا قدمنا شكوى مشابهة للنظر في قضيتنا بصورة جماعية عادلة!

يجب أن لا تتوقف الحياة (انس الماضي وفكر في المستقبل). لذا تناسيت موضوع البيت القديم وبدأت معجبًا ومرتاحًا في بيتي الجديد في منطقة الجادرية، الذي تحيط به حديقة واسعة جميلة عوضتنا إلى حد ما عن منظر نهر دجلة. كانت غرفه أوسع حجمًا وجعلنا التبريد مركزيًا. كانت البنات سعيدات لأنهن أصبحن أقرب إلى معظم صديقاتهن وأقاربهن اللواتي تسكن أغلبهن في هذه المنطقة. عند بناء الدار كانت الشوارع غير مبلطة والجسر الذي يربط الجادرية بمنطقة السيدية غير مُشيد، غير أَن المنطقة تطورت بسرعة مذهلة وارتفعت أسعار الأراضي بصورة جنونية في أواخر السبعينيات، لكن المنطقة أخذت تفقد قيمتها السكنية التي تتطلب الهدوء والسكينة.

أول مقابلة لي مع صدام حسين

كثير من الأصدقاء يسألونني أحيانًا: كم مرة قابلت صدام؟ جوابي لهم وأنا مبتسم: مرتين لأنها الأولى والأخيرة!

هذه المقابلة بالنسبة إلي حدث تاريخي مهم، لأن هذا الشخص لم يحكم فقط العراق بصورة مطلقة قرابة ثلث قرن، ولكن هزَّ منطقة الشرق الأوسط والعالم لسنين عديدة. لذلك سأصف هذه الزيارة القصيرة التي امتدت قرابة 1200 ثانية بشيء من التفصيل، كما سأحاول تقييم شخصيته وتصرفه معي وأترك للقارئ اجتهاده في هذا الصدد.

أحد الأيام (أعتقد بداية سنة 1975) وبينما أنا منهمك في فحص أحد الأطفال في عيادتي عصرًا، وإذ بالسكرتيرة تخبرني بأن «أم بسمة» زوجة وزير الصحة على التلفون وعند الإجابة طلبت مني أن أزورَ دار نائب رئيس الجمهورية لأن ولده «قصي» يشكو حُمّى غير مشخصة فأجبتها:

سأذهب بعد ساعتين فور الانتهاء من فحص الأطفال المتعبين من مرضاي! لكنها قالت لي:

أرجو أن تذهب فورًا إذا أمكن، لأن الجماعة قلقون جدًا عليه! استجبت لطلبها وتوجهتُ بسيارتي إلى كرادة مريم. كنتُ أعلم أن صدام يسكن في تلك الفترة في دار خلف القصر الجمهوري تعود ملكيتها إلى الدكتور أحمد الجلبي (طبيب قديم ينتمي إلى عائلة السياسي المعروف أحمد الجلبي نفسها). دخلت البوابة الجانبية القريبة من الجسر المعلق وقدمتُ نفسي إلى الحرس الخاص الذين تعرفوا عليَّ وأرسلوا معي أحدهم لمرافقتي إلى بيت النائب الذي يبعد حوالى 300 متر عن البوابة، ومع هذا مررنا بثلاث نقاط تفتيش وتحقيق قبل أن نصل إلى الدار المقصودة. دخلت الدار حيث كان حارس بملابس عسكرية عند الباب، وهو الذي قادني إلى صالة الزوار وهي قاعة كبيرة الحجم (مساحتها حوالى 200 متر مربع). كانت الصالة ذات مستوى متوسط من حيث التأثيث والأناقة! جلست مدة عشرين دقيقة قبل أن تدخل امرأة سافر قدمت لي القهوة التركية، وأعتقد أنها إحدى الخادمات. وبعد شرب القهوة بنصف ساعة، ظهر الحارس العسكري الذي قادني إلى داخل القاعة وفتح شباكًا جانبيًا، فقلت له بلطف: هل الجماعة لهم علم بحضوري لفحص الطفل قصي؟ أجاب: نعم يعلمون ذلك. وبعد نصف ساعة أخرى فتح الباب الذي يفصل القاعة عن باقي أجزاء الدار، ودخل صدام وهو يرتدي بدلته (أقصد لم يكن يرتدي ملابس البيت

الاعتيادية كالبيجاما ، الدشداشة أو الروب الخ....) كما أن طفله قصي الذي كان معه والبالغ من العمر ثمان سنوات. كان يرتدي بدلة كاملة رغم مرضه! فوقفتُ احترامًا له ولكن لم يمدَّ يده لمصافحتي بل بادرني بالقول: أهلًا دكتور.

أجبته بأدب: أهلًا وسهلًا سيادة النائب!

بعد أن جلس على كرسي قريب مني قال:

دكتور، عندنا قصي يشكو حُمّى منذ خمسة أيام وقد فحصه الدكتور عفان عثمان وأعطاه دواء لكن لم يستفد منه، لهذا طلبنا استشارتك!

سألته: ما هذا الدواء الذي أعطي إليه؟

وإذا به يحمل الدواء بيده وقال لي: هذا هو الدواء! بعد أن سألته بعض الأسئلة الأخرى بدأت بفحصه حسب الأصول. وبينما أنا أفعل ذلك دخل القاعة شخص أسمر اللون قصير القامة يحمل ملفًا بيده وسلم على صدام وجلس بجواره وكان يتكلم معه بدون تكلف (ميانة). زال عندي هذ الشك في هوية هذا الشخص عندما بادره قصي: شلونك خالو! إذًا هو «عدنان طلفاح» وزير الدفاع وابن خال صدام. سوف لن أعطي القارىء تفاصيل عملية فحص الطفل بل سأعطيه فكرة عن الحوار الجاري أمامي بين الرجلين. قال صدام لعدنان، تقريبًا بصفة الأمر: حاول أن يكون المؤتمر محدودًا ويشارك فيه وزير المالية ورئيس الأركان و...الخ

ويكون اليوم الفلاني الساعة الحادية عشرة صباحًا موعدًا للاجتماع!

كان عدنان يسجل كل ما ينطق به صدام. بعد أن انتهيت من فحص قصي تحول صدام إليَّ مستفسرًا عن مرض ابنه فأجبته بأنه مصاب بالتهاب التشعبات التنفسية العليا، ومن المستحسن التوقف عن تناول الدواء المضاد للحياة (الانتيبايوتك). وإذا استمرت الحمى أكثر من يومين فسوف أفحصه ثانية وقد أرسله لإجراء بعض الفحوص الطبية.

انتهت الجلسة وسلمت عليه قبل خروجي بدون مصافحة أيضًا، وسلم عليَّ عدنان وهو جالس و قال لي: في أمان الله دكتور!

رجعت إلى عيادتي بعد أن غادرها نصف عدد المرضى الذين تركتهم أكثر من ساعتين.

سأذكر بعض الملاحظات التي قد تعطي فكرة بسيطة عن شخصية هذا الرجل!

1 ـ عندما طلبت السيدة زوجة وزير الصحة أن أذهب بسرعة إلى زيارة قصي، كانت هذه المرة أكثر إلحاحًا من أن تكونَ ابنتها الوحيدة هي المريضة. استنتجت أن هذه المرأة الفاضلة كانت تحت ضغط نفسي كبير لإرضاء عائلة النائب لأنها هي التي رشحتني لتحمل هذه المسؤولية.

2 ـ تعمد تأخره وجعلني أنتظر هذه الفترة الطويلة مع علمه جيدًا أني طبيب اختصاصي في أمراض الأطفال، وقد تركت عيادتي عصرًا وهي مزدحمة بالأطفال المرضى، كان الهدف منه التقليل من أهميتي وتعظيم أهمية استدعائي لفحص ولده وكأنه يقول لي: يجب أن تفتخر أنك طُلب منك أن تفحص ابن القائد المنتظر!!

3 ـ لم يمد لي يده للمصافحة وأنا ضيف عليه في داره، وليس زائرًا لدائرته الرسمية، أو خلال زيارة منه لمقر عملي الوظيفي، علمًا أني أكبر منه سنًا وأقوم بزيارة مجانية لابنه وفي وقت غير مناسب لي.

4 ـ لم ينبس بكلمة ترحيبية واحدة للمجاملة الاعتيادية لتلطيف الجو، على عكس البكر رئيس الجمهورية الذي سمعته يبالغ في المجاملات عندما يزوره الأطباء في مسكنه. كقوله: كلفناكم! شلون أموركم! شكرًا وتعابير من هذا القبيل!

5 ـ على الرغم من أن الزيارة كانت بسيطة بالنسبة إلى الأعمال والمشاكل الكبيرة التي تنتظره، أستغرب أنه استعد وفكر في مفرداتها مسبقًا قبل أن يدخل القاعة وكان يرتدي بدلة كاملة هو (وطفله الصغير) بدلًا أن يكون مرتديًا ملابس البيت المريحة وخصوصًا لطفله المريض قصي.

6 ـ لم يدع أم الطفل تحضر بمعيته لكي تعرض الحالة وهي أدرى بتفاصيل تطور مرض طفلها كما تفعل زوجات الوزراء عند عيادة أطفالهم في مساكنهم.

7 ـ فكر مسبقًا بأن يكون سؤالي الأول معرفة نوع الدواء الذي يستعمله أثناء مرضه فجلب معه القنينة. كما أنه ذكر اسم الطبيب ووالده الذي فحصه سابقًا. هذه الأمور تدل على ذكائه وحذره.

8 ـ عند المغادرة، لم يشكرني أو يرسل بعد ذلك هدية لي أو بطاقة شكر على الأقل!

كل هذه الملاحظات التي ذكرتها، تدلّ على أنه يفكر في كل صغيرة وكبيرة ويخطط لها مسبقًا لكي يفقد الشخص الذي يقابله الثقة بالنفس، ويجبره على الالتزام الصارم بالرسميات عند التعامل معه. فهو يحبذ بالتأكيد أن يخافه الناس الذين يقابلهم أو يتعامل معهم وأن يشعروا بالرهبة بدل أن يحترموه أو يحبوه! عندما يُقابل الأجانب (ليس المواطنين) نراه يتصرف ببشاشة وانشراح وكأنه شخص آخر، لأنه يعلم أن هؤلاء لا يخافونه وغير مجبرين على احترامه!

إني متأكد أنه يعرفني جيدًا لأن ابن خاله عدنان كان آنذاك ساكنًا في داري المستملكة حديثًا، وحتمًا كان يزوره

بين حين وآخر ويجلس في الشرفة الجميلة التي تطل على نهر دجلة. هذه الدار التي بنيتها بعرق جبيني وجهدي العلمي والمهني المتواصل ومباركة آلاف الأطفال الذين أنقذت حياتهم أو خففت من آلامهم!!

زيارة طبية من نوع آخر

يقول المثل (الشي بالشي يذكر) لكي أُعطي القارىء فكرة عن تبدل الأحوال وتصرف الأفراد تبعًا لذلك. قبل أربع سنوات من تاريخ هذه المقابلة معه، اتصلت بي تلفونيًا الزميلة الدكتورة «ثامرة الناصري» وهي زوجة صديقي العزيز علي غالب ياسين، تطلب مني أن أحجز موعدًا لابنة صدام نائب رئيس الجمهورية. عندما وصلت السيدة ساجدة إلى العيادة أُدخلت غرفة الفحص بأسرع وقت ممكن، وكانت حاملة ابنتها المريضة. كانت ترتدي عباءة سوداء ومكشوفة الوجه وكان بصحبتها عريف شرطة ينتظرها خارج غرفة الفحص. كانت المرأة محترمة وسردت لي قصة مرض ابنتها (أعتقد «حلا») التي كان عمرها حوالى السنة ومصابة بالتهاب الأمعاء الحاد. وبعد إعطاء الدواء اللازم وقبل أن تخرج ألقت على الطاولة التي أمامي خمسة دنانير مقابل أجرة الفحص التي كانت دينارًا واحدًا. رفضت أخذ المبلغ ولو أنها أقسمت برأس صدام أن آخذ أجرة الفحص! أجبتها: ألّا تقسم لأني من المستحيل أن آخذ أي مبلغ،

لأن الدكتورة تامرة هي التي أرسلتك إليَّ كما أنها ابنة السيد نائب رئيس الجمهورية كذلك! وهكذا تمت المقابلة وفحص المريضة بدون أخذ أجرة الفحص وكان تصرف الجانبين مقبولًا ومحترمًا!

في النصف الثاني من السبعينيات، لاحظ أغلب الناس بعض التحسن في مستوى معيشتهم، لأن الواردات النفطية ارتفعت بعد حرب سنة 1973 مع إسرائيل.

كان تأميم النفط خطوة إيجابية قابلها الشعب بالترحاب رغم قسوتها الاقتصادية في بداية الأمر. ظهر بعد فترة وجيزة مشروع مكافحة الأمية وكان له تأييد وتشجيع من طبقات الشعب وأحزابه السياسية كافة. لا بد أن تكون هناك زمرة من قادة حزب البعث المخلصين، حاولت دفع بعض المشاريع المفيدة للشعب وتطبيقها، مثل مرسوم تشجيع الكفاءات العلمية سواء في داخل العراق أو خارجه، وقد استفدت من ذلك بالحصول على سيارة مرسيدس، كما عاد أثناء هذه الفترة عدد لا يستهان به من أصحاب الكفاءات منهم اثنان من أبناء أخواتي وهما يحملان شهادة الدكتوراه من المملكة المتحدة. وكان الدكتور عزت مصطفى متحمسًا لهذا المشروع وسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية لهذا الغرض.

أما على الصعيد السياسي، فاستمر الحزب في سحق

الشيوعيين وتحجيم القوميين الذين أصبحوا بعد وفاة الرئيس عبد الناصر قوة سياسية غير فعالة على الساحة السياسية المحلية. ولكن في الوقت نفسه بدأ الصراع ينشط بين الكتل والقوى المختلفة داخل الحزب من جهة، وبين القيادتين القطريتين لحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا والعراق من جهة أخرى. عادة تدفع الشعوب ثمنًا غاليًا لمثل هذه الصراعات السرية والعبثية دون أن يكون لها دور أو رأي في ذلك. لقد أخذ الصراع الداخلي على السلطة في العراق مسارًا شرسًا ودمويًا بعيدًا عن عيون الشعب المنهمك في تدبير أموره المعيشية اليومية. وكما يقول المثل (الزوج آخر من يعلم).

تقلد صدام السلطة بعد تنحية الرئيس البكر عن منصبه بحجة عدم تمكنه من أداء واجباته الرسمية لأسباب مرضية. أول عمل قام به هو الاستعداد للحرب مع الجارة إيران، وهي ضمن الأجندة الاستراتيجية المعروفة للولايات المتحدة في هذه المنطقة الغنية بالنفط!

نشبت الحرب في سنة 1980 علمًا أن صدام أصبح رئيسًا للجمهورية سنة 1979، واستمرت الحرب تسع سنوات أخذت خلالها المشاكل في البلد تنمو والشعب يفقر ويُقهر وخصوصًا في النصف الثاني من فترة هذه الحرب الضروس والطويلة الأمد. لقد شجعت دول الغرب وإسرائيل ومعظم دول الجوار صدام على إشعال الحرب، وعملت

على إطالتها لتدمير الشعبين العراقي والإيراني وتعطيل دورهما الحضاري، والجميع يعلم أن هذين الشعبين يمتلكان كوادر بشرية كبيرة ومتقدمة بالنسبة إلى المنطقة، بالاضافة إلى تمتعهما بموقع استراتيجي حساس جدًا ومواردهما النفطية هائلة. لقد سُئل الدكتور كيسنجر الذي يعتبر حجة في السياسة الأميركية من قبل مجلة «تايم» عن الدولة التي ستكسب الحرب العراقية الإيرانية فكان جوابه:

يجب أن يخسر الطرفان!

إذا تعمقنا في إجابته المقتضبة والغامضة، نجد أنه لم يذكر من سيكسب الحرب ولكن ركز على أهمية وفائدة خسارة الطرفين. وذلك يتم بتطويل أمد الحرب وتدمير البلدين بدون أن يكون هنالك غالب أو مغلوب، والخسارة يجب أن تكون كبيرة عند الطرفين وهذا هو المطلوب يا سيدي القارىء!!

أبناء النجف

يفرفشون بمصابنا الأليم؟

تلفون الدار أمقته بعد العاشرة مساءً، ولكنه موجود دومًا بجوار سريري حتى مطلع الفجر، ولا بد من رفعه والاستجابة إلى طلباته!

دق التلفون يومًا بعد منتصف الليل في سنة 1970، وكان على الخط زوجة عمي ناصر تدعوني بأن أحضر فورًا لأن العم مريض جدًا ويشكو ألمًا في صدره. خرجت بملابس النوم على عجلٍ حاملًا حقيبتي الطبية إلى داره الكائنة في دور الضباط في منطقة زيونة. فحصته سريعًا وعرفت أنه يشكو ذبحة صدرية حادة تتطلب استشارة طبيب مختص في أمراض القلب. لذا استدعيت الزميل إحسان البحراني الذي وصل إلينا والساعة تقارب الثالثة صباحًا. قرر الدكتور نقله على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى بسيارة الإسعاف الفوري. ركبت معه في تلك السيارة التي نقلتنا إلى مستشفى «عبد الحميد فيضي» الكائنة في العلوية، وبعد أن استقر وضعه بعض الشيء، رجعت إلى بيته بسيارة أجرة للعودة بسيارتي إلى داري وكانت الساعة قد تجاوزت

السادسة صباحًا. في اليوم التالي توفي العم وقررت العائلة دفنه في مقبرة النجف الأشرف. ركبت أثناء التشييع مع ابن العم محمد مكية في سيارة واحدة. جرت مراسيم الدفن المعتادة كعملية غسل الجثمان وزيارة الإمام الحسين في كربلاء، وبعد الظهر وصلنا إلى مدينة النجف وكانت الساعة الثالثة وبدأ الإرهاق يظهر على وجوه أكثر المشيعين. عند مدخل المدينة أوقف ضابط برتبة نقيب الموكب الذي يتكون من خمسين سيارة، فنزلت مع محمد مستفسرين عن السبب فقال: لقد أخبرنا بوصول جثمان الرائد المتقاعد ناصر عبد المجيد، لذلك استعدت سرية عسكرية مع موسيقى الجيش الموجودة في حامية النجف لاستقبال الجثمان والسير به وسط المدينة. لذا يُرجى ترك السيارات والسير على الأقدام حتى نهاية المدينة وخلف الجوق الموسيقي. قلت له:

مع الاعتزاز بهذا الشعور! لكن القضية أن أغلب المرافقين للجثمان هم من كبار السن، فحبذا لو نختصر الوقت ونتوجه إلى المقبرة مباشرةً لدفن فقيدنا والعودة إلى بغداد قبل أن يحل الظلام!

أجاب الضابط:

إحنا العسكر ما عندنا مانع ولكن المشكلة أن أبناء النجف وخصوصًا الأطفال والنساء هم بانتظار المسيرة والمزيقة منذ الصباح!!

وأضاف بصوت خافت:

دكتور دعهم يفرفشون! هاي مناسبة تحصل فقط مرة أو مرتين في الشهر!

فأجبته: سوف لن أقف حجر عثرة. سينزل الجميع ونسير خلف الموسيقى! كما اقترحت!

أثناء اليوم الثالث لفاتحة العم ناصر، كان العم محمد حسين الذي أعتبره بمثابة والدي يجلس إلى جانبي وإذا به يقع مغشيًا عليه. وعندما فحصته كان قد فارق الحياة بسرعة نتيجة سكتة قلبية. وهكذا فقدت اثنين من أعمامي خلال فترة خمسة أيام. أسبوع كله أحزان وآلام» أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

وفاة الوالدة العزيزة

في منتصف السبعينيات ونحن في دارنا الجديدة في منطقة الجادرية، كانت الوالدة فرحة في العيش والسكن في هذا البيت الواسع، تلاعب وتلاطف حفيدتيها الصغيرتين المتعلقتين بها وكانت تقول لي : «مهدي الدار فيه الآن حركة وبركة». في تلك الفترة أصيبت الوالدة بمرض مزمن مصحوب بألم شديد في بطنها، وظهر بعد الفحوصات الطبية التي أجراها الزميل الجراح زهير البحراني، أن السبب هو إصابتها بسرطان المعدة. أجرى لها الدكتور زهير عملية واستأصل قسمًا كبيرًا من الورم ولكنها ظلت تشكو الألم مدة تقارب السنتين، وكنا مع بناتها وأحبائها نتألم ونحزن وندعو الباري أن يساعدها . في هذه الفترة المؤلمة أُصيبت زوجتي بمغص كلوي حاد تكرر عدة مرات، وعند إجراء الأشعة الملونة لجهازها البولي ظهر أن الحالب الأيمن منحرف قليلًا عن موضعه. عند فحصها من قبل الدكتور محمد طالب الحسني الجراح الأخصائي في الأمراض البولية، اقترح أن تسافر إلى مدينة بريستول في بريطانيا لاستشارة أستاذه في جراحة الأمراض البولية. عملنا

بما أشار به وبعد إجراء تحريات إضافية، ظهر أن ليس هناك ما يُقلق سوى وجود تضيق خلقي في الحالب الأيمن، وعليها تناول السوائل بكثرة وخصوصًا في فصل الصيف لمنع تكرار هذا المغص الكلوي.

أثناء وجودي في المملكة المتحدة، توفيت والدتي فجأةً ولم يخبرني الأهل بذلك. قامت العائلة بمراسيم الدفن والفاتحة على روحها الطاهرة. ولما عدت إلى بغداد قمت بإجراء مراسيم عزاء كاملة لها مساء يوم الأربعين من وفاتها.

لم تعش الوالدة طويلًا لكي تفسح لي الوقت الكافي لخدمتها أطول مدة ممكنة. كما لم تستمتع في الوقت نفسه برؤية ولدها الوحيد ما فيه الكفاية، ولم تبتهج بانتشار سمعته الطيبة في المجتمع وتفتخر أنها حملته تسعة أشهر في رحمها وأرضعته من حليبها! إنه في الواقع من إنتاجها!!

إعدام الزميلين

هشام ماهر وإسماعيل التتر

كان حادث إعدام «هشام ماهر السلمان» طبيب الأطفال الذي يشتغل معي في المستشفى نفسه مؤلمًا لي. أما الدكتور «إسماعيل حسن التتر» فمعرفتي به ليست وثيقة وقد كان طبيبًا اختصاصيًا في الأمراض الجلدية، والمعروف عنه أنه كان من ضمن الطاقم الطبي المسؤول عن معالجة أفراد عوائل الطبقة الحاكمة الجديدة، علمًا أن جميع أطباء هذا الطاقم كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة في داخل وخارج مجال وظيفتهم، إلا أن هؤلاء الأطباء كانوا مراقبين بصور دقيقة من قبل الجهاز الأمني للقصر والمخابرات العامة التي تحصي عليهم جميع تحركاتهم واتصالاتهم وأقوالهم، لكونهم على علم ببعض أسرار ما يجري داخل القصر أو بين القوى المتصارعة على السلطة داخل الحزب.

لسبب ما تدهورت علاقة الدكتور إسماعيل مع القصر، وأشيع (وقد يكون هذا غير صحيح) أنه طلب السفر مع عائلته إلى الولايات المتحدة أو كندا لزيارة أولاده الذين يدرسون هناك، لكن طلبه رفض في تلك السنة!

الدكتور هشام شخص مهني ويعشق الحياة المترفة، مهتم ببيته الأنيق وعائلته وعيادته الخاصة كما كان لبقًا أنيق المظهر ومحورًا للحلقة الاجتماعية لأطباء الأطفال التي كانت تُحيي حفلات عائلية بين حين وآخر. ولهشام كثير من المعارف والأصدقاء خارج حلقتنا ومنهم الأطباء أسامة السلمان، طارق الحلي، ليث الكندي وإسماعيل التتر وغيرهم...

كان إسماعيل في ذلك الوقت يدير عيادة خارجية مقابل نادي العلوية، فُتحت حديثًا وكانت مخصصةً لفحص ومعالجة أفراد وعوائل المسؤولين المتوسطي الدرجة في الدولة والحزب الحاكم. احتاج هذا المركز إلى طبيب أطفال أخصائي وقد عُين الدكتور هشام بهذا المنصب لعلاقته الوثيقة وصداقته القديمة مع الدكتور التتر. وهذا التعيين جلب البلاء على هذا المسكين!!

سمعت (لم أُشاهد) أن سيارة مخابرات دخلت مبنى مستشفى الطفل العربي وألقت القبض عليه، وبعد فترة قصيرة أُعدم مع الدكتور إسماعيل وحسب الأصول المتبعة يُمنع إجراء مراسيم العزاء والفاتحة لمثل هذه الحالات منعًا باتًا!!

ولعدم وجود محاكم مدنية دستورية، فالحكم في مثل هذه الحالات يصدر عن طريق محاكم خاصة سرية

(مخابراتية) تكون أحكامها قاطعة وسريعة، كما أنها لا تخبر أهالي المتهمين عن تفاصيل التهمة الموجهة إليهم. هذا ما حدث في قضية إعدام هذين الزميلين. لذلك انتشرت الإشاعات بين الأطباء وأصدقاء الفقيدين، منها أن في إحدى الليالي كان الزميلان يجلسان معًا بعد العشاء ويظهر أن د. إسماعيل ذكر بعض الانتقادات والنكات الموجهة ضد أحد رموز النظام، فضحك لبعضها د. هشام!! لقد كانت المخابرات قد وضعت في إحدى زوايا هذا المحل الذي حصلت فيه الجلسة لاقطًا حساسًا للصوت، فتمكنت بواسطته من تسجيل الأحاديث التي جرت بينهما في تلك الجلسة. يُقال أن أحد المحققين اتهم د.هشام: إنك بدل أن تخبرنا عن تصرف صديقك الشائن رحت تضحك لنكاته!

فتأمل تهمة الإعدام لهذا المسكين ولشعبه المظلوم! أحبّ أن أعلق على هذا الموضوع السخيف والعقوبة الصارمة والقاسية جدًا! كان صدام يفتعل ويخطط دومًا لإرهاب الطبقة المثقفة والبرجوازية التي تعتبر المحرك (الدينمو) لهذا المجتمع بصورة دورية، لأجل استمرار بث الرعب في نفوسها وشل إرادتها لكي تفقد القدرة على التصدي لنظامه القاسي البغيض. فمثلًا تراه يختلق موضوع الانتماء إلى الماسونية في العهد الملكي التي شملت مئات من العوائل أغلبهم من هذه الطبقة، والقضية ليس لها أي قيمة سياسية تذكر غير هدف بث الإرهاب. كما كان إعدام

التجار بالجملة بحجة تلاعبهم بقوت الشعب وإعدام العشرات لتعاملهم في السوق الحرة بالدولار الأميركي. وهكذا فالحجج كثيرة والعصي التي تضرب الرؤوس غليظة، كما أتصور أن نظامه كان يفتعل الحروب والأزمات لكي يبرر ضرورة تعطيل الدستور بصورة دائمة والحكم بمراسيم دكتاتورية لا ترحم!!

سفرة غير متوقعة
إلى المملكة المتحدة

تحسنت العلاقات السياسية بصورة تدريجية بين الحكومة العراقية والحكومات الغربية أثناء الحرب الضارية بين العراق وإيران، كما بقي السفر ممنوعًا خارج العراق (السفر ممنوع والعتب مرفوع وكل شيء من أجل المعركة - المدة فقط أكثر من ثمان سنوات).

بداية 1988، انفرجت العلاقات التجارية بين العراق والمملكة المتحدة على أثر رفع الحظر عن بعض الأرصدة العراقية المحجوزة في بريطانيا، مقابل استيراد العراق كمية من الأدوية والمعدات الطبية البريطانية بمبلغ قدره خمسون مليون جنيه استرليني. وأثناء هذا الانفتاح المفاجىء، أعلنت وزارة الصحة بأنها اتفقت مع المعهد الثقافي البريطاني في بغداد، على إرسال عدد كبير من الأطباء الاختصاصيين والأساتذة للاشتراك في دورات علمية طبية، التي هي من ضمن فعاليات هذا المجلس على الصعيد العالمي. عممت وزارة الصحة هذا الاتفاق ووضعت شروطًا للأطباء الذين يرومون الاشتراك في هذه الدورات بعد تقديم طلباتهم إلى

اللجنة المختصة في وزارة الصحة. كان العدد المطلوب من الأطباء في تلك السنة 50 باحثًا وطبيبًا، بينما الذين رغبوا في الالتحاق كانوا أكثر من 200 شخص من جميع أنحاء القطر. أن أجور السفر والإقامة يتكفل بدفعها المشترك بالدينار العراقي. كنت أحد الذين اختيروا من قبل اللجنة لحضور دورة في جامعة كمبردج البريطانية المشهورة في موضوع التغذية للمرضى المصابين بأمراض وعاهات مستعصية، يكون فيها جهازهم الهضمي عاجزًا عن إمداد أجسامهم بالمواد الغذائية الأساسية الكافية! هذا الموضوع له أهمية كبرى في الطب الحديث بينما لا يعرف عنه أطباؤنا إلا النزر اليسير!!

قبل أن يلتحق المرشحون بالدورة جرت مقابلة لهم في مقر المعهد الثقافي البريطاني الكائن في الوزيرية. كانت السفرة ممتعة إذ شاهدت كثيرًا من الأقارب والأصدقاء، وأهم شيء بالنسبة إلي أن ابنتي سلمى حضرت لزيارتي علمًا أني لم أحظ بمشاهدتها مدة ثلاث سنين، لأنها كانت تخشى أن لا يُسمح لها بالرجوع لتكملة دراستها إذا عادت إلى بغداد أثناء الحرب الإيرانية العراقية.

كانت الدورة رائعة وفي أعلى المستويات علميًا. إن هذه الدورات التنشيطية للأطباء تعتبر ضرورية وعاملًا مهمًا لرفع المستوى التشخيصي والعلاجي للأطباء الاختصاصيين في جميع أنحاء العالم. كما أن عدم حضور الأساتذة

والعلماء الأجانب إلى العراق بسبب الحرب كان عاملًا مهمًا آخر أدى إلى تردي مستوى الطب فيه بمرور الزمن.

دُعيت إلى إلقاء محاضرة على أعضاء الدورة حول موضوع العلاقة بين الإسهال المزمن للأطفال وتأثيراته السلبية في نمو وتغذية الأطفال الرضّع في العراق.

أعتقد أن ما عاناه علم الطب في العراق، عانته العلوم الأخرى في جميع جامعات القطر ومعاهده.

«طبيبٌ يُداوي الناس وهو عليل».

أتاح لي وجودي في جامعة كمبردج العريقة الفرصة بأن أتصل بأحد أساتذة أمراض الأعصاب هناك، لأني كنتُ أعاني نوبات متباعدة تستمر أقل من ساعة أفقد فيها توازني عند المشي. اعتقد الأطباء الاختصاصيون في العراق أن ذلك ناتج عن خلل وظيفي في الأذن الداخلية نتيجة الإصابة بفيروس غير معروف. ولكن ظهر بعد الفحص من قبل أساتذة الطب والأذن الوسطى في هذه الجامعة، أن السبب راجع إلى انسداد وقتي غير متكامل في أحد الشرايين الدماغية الصغيرة التي تغذي مركز التوازن في الدماغ. اقترحوا عليّ استعمال حبوب الأسبيرين بصورة مستمرة والتقليل من تناول الدهون الحيوانية وزيادة التمارين الرياضية. شكرًا لجامعة كمبردج وشكرًا لأطبائها العباقرة وشكرًا للطب المتقدم، لأنه لولا ذلك لفقدت حياتي أو

أصيبت بشلل دائم ناتج عن المضاعفات المألوفة لهذه الإصابة التي تسمى في الحالات الشديدة بـ (الجلطة الدماغية). كان وجودي في لندن بعد غياب طويل فرصة ثمينة لشراء الكتب الطبية والثقافية والترفيهية الأخرى التي أتمتع بقراءتها عند العودة إلى بغداد.

في الوقت نفسه كنت أتتبع قضايا العراق والشرق الأوسط في الصحف والمجلات البريطانية. أذكر ذات يوم قرأت في إحدى الصحف تعليقًا لسيدة بريطانية كانت زوجة أحد البريطانيين المعتقلين حديثًا في العراق بسبب أمور اقتصادية تنتقد رئيس وزراء بريطانيا في رسالة مفتوحة لعدم ممارسته الضغط الدبلوماسي الكافي، أو حتى قطع العلاقات مع العراق الذي لا يحترم حقوق الإنسان ولا يلتزم بالقانون الدولي!! كان جواب رئيس الوزراء: نحن مارسنا وسنمارس الضغط الدبلوماسي المعقول، ولكن لا نتمكن من قطع العلاقات بهذه السهولة مع هذا البلد الغني بالنفط، لأن ذلك سيكلفنا أكثر من خمسين ألف عامل بريطاني عاطل عن العمل يا سيدتي المحترمة!

المعلومة التي ذكرها رئيس الحكومة البريطانية معروفة وهي أن العامل الاقتصادي أولًا! ولكن عامة الناس في العراق أو في المنطقة العربية تعتبر أن هذا الحادث هو تحدّ لبريطانيا العظمى وكفى!

إعدام وزير الصحة
الدكتور رياض ابراهيم
فضيحة سياسية وقضائية

إن هذا الحادث هزَّ حزب البعث الحاكم والقطاع الصحي والشعب العراقي في آن واحد. د. رياض من الحزبيين القليلين الذين يتصفون بالصراحة والإخلاص والبساطة في الوقت نفسه. ظلَّ موضوع الدواء الذي أُعدم من أجله غير واضح ليس للرأي العام الحزبي والشعبي فحسب، بل حتى لقسم كبير من الأطباء والصيادلة.

أول مرة التقيت هذا الشخص الذي هو أصغر مني أكثر من عشر سنين، في اجتماع له علاقة بجميعة تنظيم الأسرة، عندما كان مديرًا لمستشفى العلوية للولادة. بالرغم من درجته الحزبية المتقدمة، كان يحترم الأطباء الذين هم أقدم أو أكبر منه سنًا. فمثلًا كان يخاطبني « أستاذنا الدكتور مهدي...» هذا نادرًا ما يحدث في ذلك الوقت إلا إذا كانت هناك مصلحة خاصة!! مرة ثانية اجتمعت به عندما زار مستشفى الطفل العربي بعد أن أصبح وزيرًا للصحة مستفسرًا من مدير المستشفى الدكتور هادي الطويل ومني باعتباري

الطبيب الأقدم، عن المستوى العلمي للمستشفى والاحتياجات المطلوبة لتقديم أفضل الخدمات للمرضى. وعند مغادرته صاحبت مدير المستشفى لتوديعه، بينما كان في طريقه إلى الخارج عن طريق العيادة الخارجية التي كانت تغص بالأطفال المرضى وأمهاتهم، شاهدته يتلفت ممتعضًا من رؤية عشرات الشعارات والصور المعلقة على جدران العيادة الخارجية معلنةً استنكارها وازدراءها الرئيس المصري السادات لزيارته إسرائيل. وقد علق بكل شجاعة على ذلك:

«د. هادي! ماكو حاجة لهذه الشعارات في هذا المكان الصاخب بصراخ وعويل الأطفال المرضى! هل هذه لتسلية الأطفال أم لتثقيف الأمهات سياسيًا! هذا المكان ليس مناسبًا لرفع مثل هذه الشعارات!»

وقد رفعت الإدارة الشعارات المذكورة حال مغادرته المستشفى.

ذكرت هذا الموضوع بشيء من التفصيل لكي يدرك القارىء أن هذا الشخص صريح وشجاع وصاحب مبدأ، وقد يدفع ثمنًا غاليًا لمثل هذا التصرف غير المقبول للقيادة وقد يكون ذلك في القريب العاجل!!

لقد سمعت إشاعة انتشرت في البلد بصورة واسعة تصفُ اجتماعًا موسعًا لقيادة الحزب والكوادر المتقدمة فيه

برئاسة صدام حسين أثناء الحرب العراقية الايرانية، وفي فترة كانت المعارك في غير مصلحة الجيش العراقي على جبهات القتال! اقترح صدام في ذلك الاجتماع أنه مستعد للتنازل عن السلطة إذا ارتأت قيادة الحزب أن ذلك من مصلحة العراق والحزب! طبعًا لم يؤيد هذا الاقتراح سوى الدكتور رياض ابراهيم الذي أجاب: قد يكون ذلك مناسبًا يا سيدي الرئيس كإجراء موقت لإيقاف الحرب، وأقترح أن يكون الأب القائد البكر أو أي شخص آخر ينسبه لتسلم السلطة موقتًا إلى أن تحل الأزمة مع إيران!! رفض الجميع ذلك الاقتراح أو التزموا الصمت. انتهت الجلسة. لكن مثل هذه الشجاعة ممكن أن تكون مقبولة في العيادة الخارجية لمستشفى الطفل العربي، إلا أنها تمثل خطورة كبيرة له إذا مست قيادة صدام وأمام قادة الحزب الكبار والصغار! الجميع في الحزب يعرفون القاعدة التي تقول [إن التحدي للقيادة ممنوع! والعتب مرفوع! والوقاية خير من العلاج].

أخذ صدام وحاشيته يتربصون به للإيقاع به ليس للتخلص منه فقط، ولكن لإعطاء قادة الحزب الآخرين درسًا لا ينسى.

قبل أن نبحث موضوع الإدانة بصدد الدواء الذي أدى إلى إعدامه، يجب أن أعطي فكرة عن تسويق الدواء في أنحاء القطر. الدائرة المسؤولة عن ذلك هي مديرية عامة في وزارة الصحة ولها صلاحية استدعاء الأطباء الاختصاصيين

لاستشارتهم إذا اقتضى الأمر ذلك. الكل يعلم أن لغة التدريس في جميع كليات الطب والصيدلة في العراق هي اللغة الإنكليزية بالاضافة إلى أن أكثر من 90% من الأطباء أو الصيادلة حصلوا على شهادات اختصاصهم من الولايات المتحدة أو بريطانيا، لذلك سيكون من الطبيعي أن تسويق الدواء يتم عن طريق شركات أدوية هذه البلدان بصورة عامة، وهذه الدول في الواقع تحتكر صناعة وتسويق الأدوية في معظم أنحاء العالم أيضًا.

عندما بدأت الحرب العراقية الإيرانية اعتمد العراق على الأسلحة الفرنسية كرديف للأسلحة السوفياتية التي كان يعتمد عليها الجيش العراقي منذ أمدٍ بعيد. الولايات المتحدة وبريطانيا أعطتا الضوء الأخضر إلى فرنسا لمساعدة العراق عسكريًا ودبلوماسيًا.

صدرت الأوامر الرئاسية (سواء تحريرية أو شفهية) بأن تحظى البضائع والمنتوجات ومن ضمنها الأدوية الفرنسية بالأولوية في موضوع الاستيراد. هذا هو ما حصل، وربما بالغ بعض المسؤولين بتطبيق هذه الأوامر والتعليمات. وقد واجهنا مشكلة دوائية لها علاقة مباشرة في التسرع في استيراد الأدوية الفرنسية، وذلك عندما كنت أشرف على حملات التلقيح ضد الأمراض المعدية، ومن ضمنها لقاح الـ (ب سي جي) المستعمل للوقاية من مرض التدرن. إذ ظهرت أعراض جانبية واسعة النطاق وغير مسبوقة عند

الأطفال الملقحين بهذا اللقاح المستورد من فرنسا. لقد اعترضنا على الاستمرار باستعماله لأن المؤسسة التي قامت بتصنيع هذا اللقاح لم تقمْ بتقليل فعالية مكروب التدرن المستعمل فيه إلى الدرجة المطلوبة. مع العلم أن فرنسا لديها مؤسسات عالمية متطورة في صناعة الأدوية وخصوصًا اللقاحات، لكن ارتباك وتسرع المسؤولين عن التسويق لإرضاء السلطات العليا، أديا إلى اختيار عشوائي كما هو الحال في موضوع الدواء الذي سأذكر تفاصيله بالنسبة إلى إدانة الدكتور رياض إبراهيم.

أرجو أن يعذرني القارىء الكريم عن ذكر تفاصيل طبية وفنية دقيقة ومعقدة في هذا الصدد لأنها ضرورية ويجب ذكرها على الأقل ليطلع عليها الأطباء والصيادلة والقضاة الجنائيون عند استعراض هذا الموضوع الخطير!!

في أحد الأيام وأنا جالس في الردهة أُطالع بعض المجلات الطبية الدورية دخل عليَّ المقيم الأقدم قائلًا: دكتور، صيدلية المستشفى أرسلت لنا حقنًا لمادة «كلوريد البوتاسيوم» من شركة جديدة، والغريب أن التعليمات المرفقة معها تذكر أن القنينة الواحدة منها تحوي 3 غم من هذه المادة ولكنها تعادل 20 ملي إكو فلانت (وهذا الرمز يمثل فعالية الدواء الأيونية عند ذوبانها في الماء أو في دم المريض) أجبته:

هات لي حقنة الدواء والتعاليم المرفقة معها، وجدت أن ما ذكره كان صحيحًا وأن الشركة المصنعة للدواء وقعت في خطأ كبير!!

شرح موضوع خطورة هذا الخطأ:

إن تحويل الغرامات إلى ملي اكوفلانت لا يعرفه في الواقع أكثر من 10% من الأطباء الاختصاصيين سواء في العراق أو خارجه دون الرجوع إلى الكتب والمصادر الطبية المختصة، لأن أغلبية الأطباء تعتمد عند استعمال هذا الدواء الخطير على التعليمات الموجودة مع قنينة الدواء. وقسم منهم يعرف جيدًا الكمية التي يحتاج إليها مريضه من هذه المادة «بالملي اكوفلانت» فقط. فمثلًا يأمر الطبيب الاختصاصي المقيم بأن يعطي المريض الفلاني (60) ملي إكو فلانت من مادة البوتاسيوم. في مثل هذه الحالة (إذا كان يستعمل الدواء الفرنسي) يجب عليه أن يعطيه ثلاث قناني ليصبح المجموع 60 (3 × كل قنينة تحوي 20) لكن في واقع الحال سيعطيه ضعف الكمية أي (120) وحدة لأن القنينة الواحدة التي تحوي 3 غم من هذه المادة وكل غرام منه يساوي 40 وحدة أيونية (أي 3 × 40 = 120) إذًا إن المقيم أعطى مريضه ضعف الكمية التي يحتاج إليها من هذه المادة الخطيرة!

بالنسبة إلي أخبرت الصيدلي من مستشفانا أن يخبرَ

الأطباء الاختصاصيين والمقيمين عن هذا الخطأ. وقررت أن أتصل تلفونيًا بالمدير العام المسؤول عن هذا الموضوع، ولكن قيل لي أنه خارج الدائرة. وقد حاولت أن أتصل به في اليوم التالي فسمعت أن الزميل يوسف النعمان جراح القلب المشهور، أخبر مكتب رئيس الجمهورية صدام حسين مباشرة، بعد أن وقعت وفيات نسبتها عالية مؤخرًا بين مرضاه الذين أعطيت لهم كميات كبيرة من هذه المادة، لأن المقيمين والممرضات استعملوا الدواء حسب الإرشادات الخاطئة المرفقة مع الدواء. كان الأجدر بالدكتور يوسف أن يحاول الاتصال بمدير عام الأدوية أو وزير الصحة مخبرًا إياهما عن هذا الخطأ الناتج عن الشركة المصنعة للدواء دون أن يربك الموضوع بعمل بطولي، وكأن وزارة الصحة هي المقصّرة في ذلك. كان صدام بالمرصاد لاقتناص هذه الفرصة الذهبية للإيقاع بالدكتور رياض (هذا اليوم الجنه نريده) فطلب إقالة الوزير ومن ثم سجنه ومحاكمته (سرية طبعًا) وإعدامه!

أدرج بعض الحقائق التي كان من واجب العدالة الأخذ بها:

1 - إن المذنب الرئيسي بصورة قاطعة تقريبًا هو الشركة المصنعة للدواء، لأنها سجلت معلومات خاطئة وخطرة على التعاليم المرفقة مع الدواء، التي يعتمد عادة الأطباء عليها عند استعمال هذا الدواء.

2 ـ اللجنة التي اختارت هذه الشركة، يجب أن يُحقّق معها عن السبب في اختيارها هذه الشركة التي هي من الدرجة الثانية أوالثالثة، لأن الشركات المرموقة في فرنسا كثيرة ومن المستحيل أن تقع في مثل هذه الأخطاء الفظيعة!

3 ـ لا ذنب للوزير في هذا الأمر، ولا يجب أن تكون عنده معلومات دقيقة جدًا عن جميع الأدوية والمستلزمات الطبية المستوردة لوزارته. ولكن عند الإخبار عن حادث من هذا القبيل، عليه أن يتخذ الإجراءات السريعة والفعالة ومحاسبة المسؤولين.

4 ـ التحقيق يجب أن يكون مع اللجنة المسؤولة عن فحص نوعية وفاعلية وسلامة الأدوية المستوردة قبل توزيعها على المستشفيات والصيدليات. وعليها إشراك أطباء اختصاصيين واستشاريين وخصوصًا في موضوع استيراد أدوية وخطرة الاستعمال، كتعيين طبيب اختصاصي في أمراض القلب إذا استوردت المؤسسة أدوية تخصّ أمراض الأعصاب في حال استيرادها دواء جديدًا لهذه الأمراض وهكذا!!

5 ـ يجب أن تحال مثل هذه الجرائم على القضاء لأن عددًا كبيرًا فقدوا حياتهم أو تضرروا من جراء استعمال أدوية يفترض أن تنقذ حياتهم. أعتقد أن

هناك أفرادًا آخرين فقدوا حياتهم بالإضافة إلى مرضى الدكتور يوسف النعمان دون أن يعلم أهاليهم أو حتى الأطباء الذين عالجوهم سبب الوفاة!!

كما أن من حق المرضى المتضررين طلب تعويضات مالية كبيرة عن طريق المحاكم العراقية من الشركة الفرنسية التي ارتكبت أخطاء فادحة عند تصديرها مثل هذه الأدوية الخطرة. لم أسمع أن أحدًا ذكر اسم الشركة الفرنسية المدانة في وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة أو المرئية، وذلك لأجل طمس الحقيقة وإلقاء المسؤولية كاملة على كاهل وزير الصحة الدكتور رياض.

وهكذا خسر العراق هذا الشخص النبيل البريء. الواجب الآن بعد سقوط النظام التحقيق في هذا الأمر من جديد وبعدالة. لعلنا نتعلم من التاريخ لكي نتوقى مثل هذه الأخطاء، ولا نكرر مآسي مشابهة وبأسماء وأنظمة جديدة في المستقبل.

كم كنت سعيدًا يوم تلقيت مخابرة تلفونية من «محمد» نجل الدكتور رياض قبل ثمان سنوات تقريبًا، يطلب مني موعدًا لفحص ابنته الصغيرة فأجبته: إني بانتظارك الآن في مسكني، وبعد ساعة جاء مع زوجته وطفلته فقبلته قبلتين واحدة له والثانية لوالده الذي قتل مظلومًا. وبهذه المناسبة بودي أن تقيم نقابة ذوي المهن الطبية أو الجمعية الطبية العراقية حفلًا تأبينيًا في مرور ذكرى إعدامه، لأنه لم تُسنح

الفرصة لتأبينه وإقامة الفاتحة على روحه الطاهرة. وقد تكون هذه مناسبة للطوائف والأحزاب المتنافسة على السلطة في العراق لكي تُركز أكثر على الثوابت الإنسانية والأخوية المشتركة التي تربط أبناء البلد الأخيار، كما حدث بصورة تلقائية وبصورة مدهشة في ذكرى إعدام المرحوم عبد الكريم قاسم. يختفي الأشخاص والأنظمة ويتبدلون بمرور الزمن لكن التاريخ يبقى حاضرًا وإلى الأبد.

سفرة إلى دبي

الحرب على وشك الانتهاء ولكن لا يزال السفر محظورًا والشعب قابعًا في هذا السجن الكبير. قدمت بحثًا علميًا لمؤتمر عالمي في طب الأطفال انعقد في مدينة «دُبي» نهاية سنة 1989. قُبل البحث من قبل اللجنة المشرفة على المؤتمر وحصلت الموافقة من وزارة الصحة وتمت الإجراءات الأمنية الصارمة التي تشمل تزكية أمنية من المستشفى والوزارة والمنطقة السكنية، بالإضافة إلى الأمن العام، والمخابرات، كما يصدر بصورة روتينية منع السفر لزوجتي وابنتي حتى عودتي من السفر (جهد أمني كبير وإهدار للمال العام لسفرة علمية بسيطة).

كان موضوع البحث يتضمن عرض عشرين حالة من حالات الأطفال المصابين بذات الرئة من النوع النادر وشديد الخطورة. المشكلة الوحيدة التي واجهتني قبل السفر هي عدم توافر سلايدات ملونة لعرض الصور الشعاعية والأرقام التفصيلية على الشاشة عند إلقاء المحاضرة على مئات الأطباء المشاركين في هذا المؤتمر من جميع أنحاء العالم. حاولتُ الحصول على هذه التقنية البسيطة من جميع مستشفيات وزارة الصحة وكلية طب بغداد والكليات العلمية

الأخرى التابعة لوزارة التعليم العالي دون جدوى !! قيل أنها متوافرة في دائرة البحث العلمي (وهذه المؤسسة تبحث في الشؤون العسكرية ولا يسمح الاتصال بها) وموجودة أيضًا في مديرية الإذاعة والتلفزيون العامة (دعاية وسياسة) ! تعجبت لهذا التخلف وعدم الاهتمام بالعلم والثقافة والمعرفة. هذه السلايدات متوافرة في مكاتب المصورين في شوارع البلدان المتحضرة ونصف المتحضرة في جميع أنحاء المعمورة. هذه التقنيات البسيطة كآلة الطابعة والكومبيوتر والهاتف النقال والفضائيات... الخ كنا محرومين منها أثناء الحروب الطويلة و استمرت أثناء السلم حتى سقوط النظام.

اضطررت أن أستعمل الفانوس السحري القديم وصفائح النايلون الرقيقة الشفافة لكي أكتب وأرسم بيدي الجداول المرفقة بالبحث. تأسفت أن أكون أنا المحاضر الوحيد في هذا المؤتمر يستعمل هذه التقنية المتخلفة في عرض هذا البحث المهم الذي حاز إحدى جوائز هذا المؤتمر العالمي!

كانت أجور السفر والإقامة كلها تُدفع من قبل الدولة المضيفة للمؤتمر. واستأنست بهذا المؤتمر علميًا واجتماعيًا وبقيت أسبوعًا إضافيًا ضيفًا على ابن أختي الدكتور نزار مكية. والمهم عندي أن ابنتي سلمى حضرت محاضرتي رغم أنها كانت تشكو من كسرٍ في ساقها. وفي أثناء وجودي في الإمارات العربية سمعت أن السفر بات مسموحًا للمواطنين في العراق.

انتهاء الحرب العراقية الإيرانية

تعتبر هذه الحرب من أطول الحروب العسكرية الحديثة، حدثت لأن الدول الكبرى كان لها مصلحة في إثارتها وإدامتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. لذلك كان الناس فرحين بانتهائها ويحلمون بمستقبل زاهر يستثمرون فيه مواردهم النفطية الهائلة! ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن! فربان سفينتنا كان يفكر بطريقة أخرى وعنده حسابات وطموحات مختلفة، فلديه مليون جندي مدجج بالسلاح وعاطل عن العمل، البنية التحتية مدمرة، أسعار النفط منخفضة، دول الخليج العربي غير مسرورة بنتائج الحرب وتطالب بديونها المستحقة، والحكومة العراقية مفلسة والشعب المسكين هو آخر من يعلم!!

بالنسبة إلي، إن أمورًا كثيرة انفرجت في تلك الفترة لأني بلغت سن التقاعد بعد خدمة أربعين عامًا، وابنتي ياسمين تخرجت بدرجة «جيد» في جامعة التكنولوجيا، والسفر انفتحت أبوابه حتى إلى الولايات المتحدة الأميركية التي لم تُتح لي الفرصة لزيارتها منذ أن غادرتها في منتصف الخمسينيات. قررت السفر هذه المرة إلى الولايات المتحدة لكي أزورَ مدينة ومستشفى بلتيمور وجامعة جون هوبكنز

ومن تبقى لي من أصدقاء ومعارف. سمة الدخول إلى الولايات المتحدة ستكون العقبة الأولى التي يجب أن أجتازها، لأن العراقيين مندفعون بصورة منقطعة النظير للحصول عليها. كنت أشاهد قرب دار القنصلية الأميركية الواقعة في «المسبح» المئات من الناس ينتظرون ويتدافعون للحصول عليها منذ الساعة الرابعة صباحًا.

في فترة الستينيات كنت ضمن الكادر الطبي المسموح له بمعالجة الأطفال المرضى لعوائل السفارة الأميركية في بغداد، لذا فكرت أن أرسل رسالة خاصة إلى القنصل أخبره بذلك عله يحدد لي موعدًا مبكرًا للحصول على السمة المطلوبة. حاولت ذلك ولكن لم أتلقّ ردًا منه على ذلك. حينذاك اقترحت زوجتي أن تتصل به تلفونيًا بعد أن حصلت على رقمه من صديقنا القنصل اليوناني في بغداد.

أثناء المخابرة شرحت زوجتي له الموضوع فاستجاب لطلبها وحدد موعدًا لمقابلته لهذا الغرض. كان ذلك في ربيع سنة 1990 والعلاقات الأميركية العراقية آخذة في التدهور بالدرجة نفسها التي تتردى هذه العلاقات مع دول الخليج العربي.

الحقيقة لو كنت أعلم مسبقًا بهذا التوتر المتزايد بين الحكومتين العراقية والأميركية لترددت في إرسال الرسالة إلى القنصل الأميركي، التي بالتأكيد صودرت من قبل الأجهزة الأمنية ولم يستلمها القنصل أصلًا! على كل حال،

أحمدُ الله أن المخابرات العراقية لم ترسل لي أحدًا للتحقيق معي في هذا الموضوع، وأعتقد أنها اقتنعت بسلامة نيتي واندفاعي للسفر بعد غياب أربعين سنة عن البلد الذي درست وتعلمت فيه، علمًا أن العلاقات بين البلدين أثناء المدة التي كنت فيها طبيبًا استشاريًا لأمراض أطفال عوائل السفارة الأميركية حسنة ويمكن تسميتها دافئة!

عند إجراء المقابلة مع القنصل أعطانا سمة دخول سياحية لي ولزوجتي ورفض إعطاءها لابنتي ياسمين (خوفًا من أن تبقى في الولايات المتحدة واستعمال حق اللجوء السياسي)، لذلك رفضنا السمة الممنوحة لنا وتركناه بدون أن نشكره! والغريب أننا طلبنا سمة دخول إلى كندا بعد أيام معدودة لغرض السياحة وزيارة ابنتنا المقيمة هناك، وقد رفض القنصل الكندي إعطاء السمة لابنتنا! لذلك أعتقد أن السفارتين على اتصال وثيق وتنسيق فيما بينهما. الظاهر أن شيئًا كان يُطبخ في الخفاء بين الدول الكبرى التي تتوقع حدوث أزمة كبرى أوحرب جديدة في المنطقة قريبة جدًا!

أخبرنا ابنتنا في كندا عن هذه التطورات واتفقنا على اللقاء في لندن بدل الولايات المتحدة. بعد وصولنا إلى هناك التحقنا بسفرة سياحية إلى اسكوتلاندا وبينما كنا نقيم في بلدة صغيرة قريبة جدًا من موقع سقوط الطائرة الأميركية في (لوكربي) سمعنا وتأسفنا على خبر اجتياح العراق للكويت الشقيق!

قبل أن نغادر هذه البلدة الصغيرة الجميلة، تجولنا فيها عند الصباح الباكر وشاهدنا في طريقنا بائع الحليب يتجول بسيارته الصغيرة على الدور موزعًا الحليب ومشتقاته، وصبيًا راكبًا دراجته الهوائية يلقي الجرائد الصباحية في حدائق المساكن التي يمر بها، ومررنا بالعيادة الطبية الصغيرة التي لم تفتح أبوابها بعد. وبجانبها صيدلية صغيرة وبالقرب منها محل لبيع الخضروات الطازجة والمعلبات وبجنبه يقف القصاب منهمكًا بعرض لحومه على المشترين. كما شاهدنا الكنيسة الصغيرة في جانب من القرية ومركز الشرطة الواقع على الجانب الآخر مع دائرة البريد. قلتُ لنفسي بعد نهاية الجولة وسماعي أخبار تلك الحرب الجديدة: لو أن صدام وحكامنا الآخرين يتجولون في هذه القرية الصغيرة ويشاهدون بأم أعينهم كيف يعيش العالم المتحضر عسى أن يشعروا كم نحن متخلفون! وربما يقارنون بين مستوى معيشة الناس في هذه القرية السعيدة الهادئة وبين مستواها في قرانا البائسة في العراق مثلًا! أعتقد أن سفرتهم هذه تفيد بلدانهم أكثر من زيارتهم الدول الكبرى والاهتمام بمشاهدة مصادر السلاح والدمار! المهم بالنسبة إلى القادة العرب أن تتبدل طريقة تفكيرهم فيسعوا إلى استعمال العقل والمنطق وينبذوا الاندفاع إلى الحروب (والمعارج التي استحدثنا مفردات لغوية جديدة لها).

بعد فترة قصيرة قضيناها في مدينة لندن، حزمنا أمتعتنا عائدين إلى ساحة المعركة ثانية ولم تمض إلا أشهر معدودة

على انتهاء الحرب الإيرانية الطويلة الأمد، وكأننا في فترة استراحة فقط كما تُعطى هذه الفرصة للاعبين في الملاعب!

يعلم الجميع أن الدول الكبرى وضعتنا في المصيدة ثانيةً. ولكن هذه المرة هم الفريق المحارب أمامنا وليس المتفرج كما كانوا في السابق. كل العالم شجب الاعتداء العراقي حتى معظم الدول العربية (الشقيقة)، التي شارك قسمٌ منها مع الحلفاء في تحرير الكويت (الشقيق أيضًا). كانت العقوبات الدولية سخية جدًا مع الشعب العراقي فكان الحصار شاملًا الغذاء والدواء وحليب الأطفال وو... الخ. الشعب العراقي المسكين لم يُستشر بهذا الأمر الخطير، وحتى لم يعلم بهذا الحدث المصيري إلا بعد إعلان الحرب ودخول القوات العراقية الكويت. لقد سمع بذلك عن طريق المذياع والتلفاز كما سمعت شعوب العالم الأخرى المتفرجة على هذه الدراما الإنسانية التي تم تمثيلها وإخراجها على مسرح وادي الرافدين الحبيب!

قسم كبير من عوائل بغداد وكثير من أقاربنا وأصدقائنا هربوا من بغداد إلى ضواحيها أو إلى الأماكن المقدسة عند اشتداد القصف الجوي. لقد قررنا البقاء صامدين ولكن ليس إلى النهاية. فبعد أن طال القصف الجسر المعلق وجسور بغداد الأخرى التي تربط جانب الكرخ بجانب الرصافة، انتشرت إشاعة بأن الجسر الحديدي الذي يربط الجادرية بمنطقة السيدية والذي يبعد عن دارنا حوالى 200 متر جاء

دوره. لذا قررنا الانتقال موقتًا إلى دار صديق العائلة «حميد يونس» الكائنة في الجادرية أيضًا ولكنها بعيدة عن موقع الجسر. بعد أن مكثنا هناك خمسة أيام رجعنا إلى دارنا ثانيةً لأننا في الحقيقة تعودنا المعيشة في ساحة المعركة فأزيز الطائرات النفاثة وأصوات المدافع المضادة للطائرات والظلام الدامس في الليل والبرد القارس في الشتاء والحر الذي لا يطاق في الصيف، وكل هذه المزعجات تكيفنا معها وأصبحت جزءًا من حياتنا الجديدة التي يمكن تسميتها

بـ (عسكرة المجتمع المدني)! اختراع جديد يُسجل عالميًا باسم العراق العظيم!!

صباح اليوم الذي تلا القصف الشديد لمنطقة الجادرية، ذهبت مع زوجتي لمشاهدة ما جرى لهذا الجسر المعلق الزاهي والشامخ والمتعالي على كل جسور بغداد. شاهدنا شقًا واسعًا في وسطه بفعل الصواريخ الذكية والمدمرة لهذا الجسر الحبيب لقلوب أهالي الكرادة. قد أُذل الجسر فلا هناك مارة يمشون عليه ولا سيارات تعبر شوارعه الواسعة، إلا الطيور والعصافير التي التجأت إليه هاربةً من الصخب والضجيج الذي طال أعشاشها الهادئة في البساتين المجاورة. وبدون شعور نزلت بضع قطرات من دموعي عند مشاهدتي هذا المنظر الحزين، كما رأيت الحسرة والذهول على وجوه أهالي الكرادة عندما كانوا يحملقون مذهولين لهذا المنظر الأليم!

بعد أن غادرنا هذا المكان، توجهنا إلى منطقة قريبة منه قُصفت في الليلة نفسها وهي مجمع الاتصالات البريدية والسلكية في الجادرية. الغريب أن المجمع دمر تمامًا بينما مكتب البريد الصغير المجاور له ومحطة ضخ البنزين التي بجانبه لم يمسهما أي ضرر، فقلت لنفسي «تكنولوجيا متقدمة وإنسانية متخلفة»! غرض هؤلاء الجبابرة هو أن يبقوك حيًا ولكن ذليلًا ومتخلفًا!

دامت الحرب الجوية حوالى الشهرين والحرب الأرضية يومين، ثم انتهتا بالاستسلام بلا قيد ولا شرط! ولكننا انتصرنا في حفلة توقيعها إذ كسرنا شوكة المستعمرين الطغاة بأن أجبرناهم على أن يكون التوقيع على تراب الوطن المقدس وليس كما أرادوا على ظهر الأسطول الأميركي العميل!!

قام الشعب بانتفاضة تلقائية بعد الهزيمة العسكرية المنكرة لكنها كانت بلا أهداف واضحة ولا قيادة حكيمة. ومع هذا عمت بسرعة كل مناطق العراق الجنوبية والوسطى كما ثار الأكراد في الشمال الشرقي من العراق، ولكن الحلفاء وعلى رأسهم أميركا لا يتدخلون في الشؤون الداخلية لهذا البلد!! وفي هذا الصدد يتساءل المرء كيف احتلوا العراق في سنة 2003، جوابهم سيكون: اعتقدنا أن هناك أسلحة دمار شامل، ولكن كنا على خطأ!

على كل حال القضية معقدة وأترك للقارىء أن

يبحث بعقله لا بعاطفته عند الإجابة المفضلة عن تلك القصة المؤلمة والحصار المذل الذي فُرض على هذا البلد سنوات طويلة!

المعيشة لعامة لناس مع الحصار أفظع من الحرب بدون حصار. الحقيقة أن الشعب لم يجع بايولوجيًا والفضل في ذلك يرجع إلى البطاقة التموينية التي التزمت بها الدولة على الدوام. والتنقل بعد الحرب أصبح ممكنًا بين بغداد والمحافظات بعد أن تم إصلاح الطرق والجسور ولكن المحافظات الكردية انفصلت سياسيًا وعسكريًا بفضل الغطاء الجوي الأميركي ولكنها أبقت علاقاتها الاقتصادية مع حكومة بغداد.

منذ السنة الأولى بعد انتهاء الحرب مع الكويت أخذ الشعب يعاني شدة الحصار الاقتصادي الضاغط على حياته اليومية، فالمواد الغذائية والحاجات اليومية وخصوصًا التي تحتاج إليها الطبقة المتوسطة النامية أصبحت شحيحة جدًا. فمثلًا إن الزائر الذي يزور دارنا سيكون محظوظًا عندما نقدم له القهوة التركية بدل الشاي المتوافر بالبطاقة التموينية والحلويات نقدمها في المناسبات الخاصة لارتفاع أسعارها وتردي سعر العملة المحلية وعندما نذهب أحيانًا للغداء في نادي العلوية وهو أرقى نوادي بغداد، لا تشعر زوجتي بالحرج في أن تضع في محفظتها اليدوية قبل مغادرتنا المطعم ما تبقى من فائض الخبز والصمون المخصص لنا

إذا كان أبيض وليس الأسمر الصلب الملمس المصنوع من طحين الحصة التموينية السيئة الذكر.

استبشرت يومًا عندما أعلنت صحيفة «بابل» التي يقوم بالإشراف عليها عدي النجل الأكبر لصدام، أنها سوف تتخذ منحى جديدًا يختلف عن باقي جرائد السلطة الأخرى كالثورة والجمهورية، وأشارت أنها سوف لا تلتزم كبقية الصحف المحلية الأخرى بوضع صورة كبيرة للقائد على صفحتها الأولى يوميًا بمناسبة أو غير مناسبة، وقد فعلت ذلك حقًا! كما أعلنت أنها ستلتزم بالنهج الديمواقراطي مستقبلًا مبتدئة بنشر سلسلة مقالات تشرح فيها المفهوم الحديث للديموقراطية، وسيقوم الأستاذ حسين جميل سكرتير الحزب الوطني الديموقراطي بتحرير السلسلة الأولى من هذه المقالات لتنوير الشباب العراقي بالمرحلة التقدمية الجديدة لثورتنا المجيدة. تابعت قراءة الجريدة يوميًا منتظرًا سلسلة مقالات الأستاذ حسين ولكن دون جدوى! وأخيرًا وبعد أسابيع طويلة طلعت علينا الجريدة معتذرة عن نشر تفاصيل مقالة الأستاذ حسين لضيق حيز النشر في جريدتها الغراء. لكن ذكرت أن في الصفحة الثالثة من عدد ذلك اليوم يجد القارىء تعريفًا للديموقراطية كما يراها الأستاذ واختزله بخمسة سطور لا غير! عرفت آخر الأمر أن القضية برمتها تمثيلية رخيصة أو مهزلة مبتذلة!

انقطعنا بعد انتهاء الحرب عن العالم المتحضر

والمتخلف بصورة كاملة مدة ستة أشهر تقريبًا لأن السفر ممنوع والتلفونات الخارجية متعطلة، لذلك عندما فُتح باب السفر إلى خارج العراق، سافرت مع بعض الأقارب إلى عمان في الأردن وهو البلد الوحيد المسموح لنا زيارته، لكي نتصل بأحبائنا في خارج العراق لطمأنتهم بأننا لا نزال على قيد الحياة. وبالنسبة إلي كانت «سلمى» ابنتي الهدف الرئيسي لسفرتي، حيث اتصلت بها تلفونيًا وكنت اتصلت ببعض الأقارب المنتشرين في أنحاء العالم. وبعد ثلاثة أيام رجعنا إلى بغداد الحبيبة المخربة.

كان دوامي في العيادة بعد الحرب متقطعًا في بداية الأمر ولكنه أخذ ينتظم تدريجًا. الأجور شحيحة جدًا ولا تتجاوز أجرة الفحص الدولارين إذا تمكن المريض من دفعهما، راتبي التقاعدي هبط بالتدريج إلى ما يقارب الخمسة دولارات في الشهر. فتأمل الوضع إذا كان هناك شخص يعيل عائلة ويتقاضى هذا الراتب الضئيل بدون أن يكون عنده مورد آخر كالعيادة وليس له فائض من المال كما هو الحال معي!!

برزت لأول مرة في العراق ظاهرة جديدة بصورة واسعة وشملت خصوصًا الطبقة المتوسطة المثقفة والطموحة بالإضافة إلى هروب رؤوس الأموال الكبيرة منها والصغيرة، بمعنى آخر تفريغ المجتمع العراقي من المحرك الرئيسي الذي يولد الطاقة لتحريك عجلة القطاع الثقافي والاقتصادي لهذا البلد الغني بثروته الطبيعة والبشرية.

استغلت السلطة هذه الظاهرة لأنها ساعدتها على التخلص من هذه القلة المثففة التي يصعب إقناعها أو قيادتها من جهة، ومن جهة أخرى عليها أن تدفع لها ثمنًا غاليًا إذا أرادت شراء ذممها. فالخروج من هذا الجحيم له ثمن أيضًا، فالموافقة على السفر إلى خارج العراق يُكلف المواطن 400 ألف دينار عراقي للشخص الواحد أي ما يعادل 200 دولار أما العائلة المكونة من خمسة أفراد فعليها أن تدفع 1000 دولار أميركي. خطوط التلفونات الخارجية صعبة المنال وعليك أن تنتظر على الخط ساعات طويلة قبل الحصول على الخط الدولي وتُحاسب بعدئذٍ على الدقائق والثواني التي تتحدث فيها مع أحبائك بالدولار الأميركي.

المفردات والحاجات المستوردة مفقودة من السوق أو غالية الثمن، حتى أني سمعتُ أن الأطباء وحتى قسمًا من الاختصاصيين التجأوا إلى شراء الملابس القديمة المستعملة (اللنكات). فتأمل أيها القارىء كيف كانت معيشة الطبقة المتوسطة التي أصرت أو اضطرت إلى البقاء حتى سقوط النظام!!

مئات الألوف هاجروا إلى الأردن وهي الدولة الوحيدة التي تسمح باستقبالهم، مع العلم أن القسم الأعظم منهم لا يملك الدخل الكافي للمعيشة هناك، كما أن معظمهم ليس بإمكانه الحصول على سمة دخول إلى البلدان العربية والعالمية الأخرى. والأردن لا يسمح لهم بالعمل فتراهم يهيمون على وجوههم متسكعين في شوارع عمان ومقاهيها غير الزاهية! القلة المحظوظة منهم تعمل بالخفاء وبأجور بخسة جدًا.

الحياة يجب أن لا تتوقف والناس عليهم أن يحاولوا التنفس بعمق لدفع عجلة دورتهم الدموية رغم كل شيء!! هذا ما كان الناس في الواقع يفعلون لكيلا يطغى عليهم اليأس فيختنقوا. لهذا نراهم يتناسون الأتراح ويتأملون قدوم الأفراح. الحياة يجب أن تستمر والعجلة كما يقول إخواننا الماركسيون تدور ولا تتوقف!! لكننا نقول بدل ذلك، نحاول دفعها بكل ما عندنا من جهدٍ وقوةٍ حتى تتوقف في نهاية الأمر!!

عندما خُطبت ابنتي «ياسمين» إلى الشاب «محسن» ابن الزميل نايف الحسوني سنة 1993 كانت مراسم الزواج كلها أفراحًا وتناسينا الأحزان وأقمنا حفلة تعارفية موسيقية في حديقة الدار ورقصتُ مع الكبار والصغار، كما قمنا بحفلة ثانية كبيرة ليلة الزواج في فندق المنصور. كانت ولادة ابنتها البكر (ميس) فرحة كبيرة، وولادة ابنها (علي) مثيرة. وهكذا كنا تارة نقلق ونتألم، وتارة نفرح ونتأمل، ونساعد الناس من خلال مهنتنا وهم في المقابل يساعدوننا ويكرموننا ويحبوننا.

لا يمكن الهرب من المرض دائمًا

المرض والتقدم في السن متلازمان، وهما دومًا يتقدمان نحونا مهما عملنا لتأخير سرعتهما باستعمال الأسلحة القديمة والمستحدثة كالوقاية الصحية والاهتمام بالغذاء المناسب والرياضة المستمرة والترفيه عن النفس حسب المستطاع والقناعة بما هو في اليد أو الجيب وترك ما تبقى لرب العالمين!

في نهاية التسعينيات، أُصبت بنوبة دماغية مشابهة للأولى وتشمل مركز الدماغ المسؤول عن توازن الجسم (ليس المقصود توازن العقل). الواقع، أصبح في بغداد من الصعب في ذلك الوقت أن تجد طبيبًا أو مركزًا طبيًا يمكنك الاعتماد عليه والثقة به 100%. لذلك قررت السفر ثانية إلى بريطانيا التي لا تزال عظمى! الصعوبة هي الحصول على تأشيرة الدخول لهذا البلد. بعد جهدٍ جهيد تمكنتُ من الاستجابة لمتطلباتهم القنصلية لإعطاء تأشيرة السفر إلى العراقيين الذين أصبحوا الآن منبوذين، واجتزت أيضًا بنجاح المقابلة التي تمت في القنصلية البريطانية في عمان، التي تم فيها فحص اللياقة البدنية والعقلية والنفسية و... الخ

ومن المتطلبات التي لا أزال أتذكرها هي كالآتي:

1 ـ العمر: يُستحسن أن يتجاوز الخامسة والستين.

2 ـ هل سبق أن دخل بريطانيا العظمى خلال فترة العشر سنوات المنصرمة ورجع إلى بلده سالمًا.

3 ـ خريطة طابو للبيت الذي يملكه وقيمته التقديرية بالباوند البريطاني (لأن سعر العملة العراقية غير مستقر).

4 ـ كفالة من مواطن بريطاني مصحوبة بوثائق تثبت أنه مؤهل ماليًا ويتحمل كلفة المسكن والمعيشة خلال فترة وجود طالب التأشيرة في بريطانيا.

5 ـ التأكد من أن زوجته وأولاده موجودون في بغداد ولن يلتحقوا به في المستقبل.

هناك شرط واحد نسوا إدراجه ألا وهو شهادة حسن السلوك من الدوائر الرسمية في العراق!!

مع كل هذا التهكم الذي بدا مني بسبب الإهانة التي أحسست بها، أعطي الحكومة البريطانية كل الحق في مطالبها القاسية للحصول على سمة الدخول، لأن هناك آلاف العراقيين مستميتون للهرب من جحيم العراق والتوجه إلى أي بقعة في العالم. في تلك الفترة كان المواطن العراقي يعتبر محظوظًا إذا كان بإمكانه الحصول على سمة دخول أو إقامة في السودان، اليمن والجزائر. فكيف الحال إذا كانت هذه الدولة بريطانيا العظمى!!

وأخيرًا، دخلت بريطانيا واستضافني الأخ فاضل تويج وزوجته أمل مكية في شقتهما المطلة على نهر التايمس في لندن. ومن ثم توجهت معه إلى المستشفى الذي يعمل فيه كطبيب استشاري في أمراض الأعصاب الدكتور الشهم «علي المعمار». بينما كنت أهم بدخول المستشفى صادفت الزميل الدكتور «جلبرت توما» أستاذ أمراض الأنف والأذن والحنجرة في جامعة بغداد وهو خارج بعد أن أتم زيارته للطبيب نفسه الذي أقصده. رحب بنا الدكتور علي قائلًا: هذا يوم أعتز به لأن اثنين من أساتذتي في بغداد وفدا عليَّ لتقديم خدمتي لهما!!

طلب الدكتور علي بعد إتمام فحصه السريري بعض التحريات الشعاعية الحديثة (MRI) وبعد ذلك اطمأن إلى عدم وجود ضرر في الجهاز العصبي المركزي. قبل أن أترك المستشفى شاكرًا إياه بادرته بالسؤال عن عدد الأطباء الاستشاريين العراقيين الموجودين في هذا المستشفى المتوسط الحجم في لندن فأجاب: عددهم في هذا المستشفى (16) طبيبًا استشاريًا ومنهم ابن الدكتور جلبرت توما. فاندهشت لهذا الرقم المرتفع وأردفت بالسؤال الثاني: إذًا كم هو عددهم في جميع أنحاء بريطانيا؟ فأجاب: أكثر من 400 طبيب استشاري في جميع فروع الطب. والهند التي تعدادها 1000 مليون نسمة هي البلد الوحيد الذي سبقنا إلى هذا الرقم القياسي!

الحصول على الإقامة في اليونان

الواقع لم أفكر بجدية في هذا الموضوع لتعلقي بهذا البلد وأهوى طب الأطفال وأطفال العراق فهما مصدر رزقي وسعادتي في الوقت نفسه. خطتي لتحقيق أُمنيتي بعد التقاعد كانت تعتمد على محاولة إقفال العيادة الخاصة بانتهاء القرن العشرين وشد الرحال أنا وعائلتي للسكن في ربوع لبنان الذي أعتبره من أجمل بقاع العالم. لكن الوضع في العراق أصبح يتطور من سيىء إلى أسوأ، ولبنان ظل غير مستقر أمنيًا وسياسيًا. الخيار الوحيد المعقول الممكن الذي بقي أمامي هو الحصول على الإقامة في اليونان. وهو في متناول اليد، لأن زوجتي تحمل الجنسية اليونانية والعراقية في آن واحد. بعد الحصول على الإقامة أصبح السفر إلى اليونان ودول المجموعة الأوروبية لا يحتاج إلى سمة دخول ما عدا بريطانيا التي إمكانية الحصول على سمة الدخول إليها من أثينا متيسرة ومتطلباتها بسيطة جدًا.

ابتدأنا منذ منتصف التسعينيات بالسفر في فصل الصيف سنويًا لمدة 4 ـ 6 أسابيع نزور فيها مختلف الجزر اليونانية الموجودة في البحر المتوسط وخصوصًا جزيرة

كريت المفضلة عندنا لأنها الأكبر والأجمل، بالإضافة إلى أن زوجتي ولدت في إحدى مدنها الساحلية الصغيرة.

آخر سفرة لي إلى لندن كانت سنة 2002، في تلك الفترة كانت الأخبار والتعليقات في الصحف اللندنية تؤكد أن الولايات المتحدة بعد تاريخ الحادي عشر من سبتمبر أصبحت جادة في موضوع إسقاط نظام صدام الدكتاتوري بحجة وجود أسلحة دمار شامل من جهة، وتهديداته المتكررة لحليفتها في المنطقة إسرائيل من جهة ثانية.

ظهر بعد السقوط أن تكتيك صدام القائم على إخافة دول المنطقة والغرب وإسرئيل كان فاشلًا وخائبًا، لأن الولايات المتحدة استغلت تلك الادعاءات الفارغة وبذلك حصل الرئيس جورج بوش على موافقة مجلسي النواب والكونغرس في إعلان الحرب على العراق بمنتهى السهولة رغم أن الشعب الأميركي لا يحبذ الحروب بصورة عامة. استمر صدام بالاجتماع بصورة دورية ومستمرة حتى نهاية حكمه بلجنة ما يسمى لجنة الطاقة النووية بصورة علنية وعلى شاشات التلفاز حاثًا وشاكرًا أعضاء اللجنة على المزيد من الجهد لتطوير وتصنيع الطاقة الذرية التي ليس لها وجود أصلًا في ذلك الوقت! كما أنه أنشأ جيشًا عرمرمًا جديدًا أطلق عليه اسم «جيش القدس» قوامه مليون جندي لتحرير القدس من براثن العدو الصهيوني. الكل يعرف في بغداد قصة هذا الجيش الذي يتهامس رجاله في

الخفاء قائلين: ان فلسطين الجريحة تبكي على حالنا! قد يكون هذا قد أزعج إسرائيل بسبب أن الشعوب العربية العاطفية المتحمسة ضدها قد تصدق ذلك وترتفع معنوياتها المنهارة!!

بدأت المعارضة الموجودة في لندن والمتواصلة مع الولايات المتحدة الأميركية تعقد اجتماعاتها العلنية والسرية للتخطيط لما بعد سقوط النظام. وكانت المخابرات الأميركية والبريطانية تشجع وتنسق بصورة شبه رسمية وعلنية أحيانًا تلك الاجتماعات التي تضم جميع أطياف المعارضة العراقية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. إذا استثنينا الأحزاب الكردية، نرى أن جميع الأحزاب والكتل الأخرى فقدت قواعدها الفعالة على الساحة السياسية العراقية منذ أمدٍ بعيد، وهكذا أصبح قادتها لا يملكون معلومات دقيقة عن نبض الشارع العراقي وهمومه الأخرى عند دخولهم العراق مع قوات الاحتلال. لذلك فقدوا السيطرة على الجماهير السائبة سياسيًا والمحرومة اقتصاديًا والمتخلفة ثقافيًا!

أحد التعليقات التي أثارت اهتمامي كان بقلم الداهية هنري كيسنجر السياسي العجوز الذي نجح في التقارب الأميركي الصيني (وبما يعرف بنغ بونغ دبلوماسي) كما تمكن من فك الارتباط العسكري بعد حرب سنة 1973 بفرض التفاوض السلمي. كان التعليق في إحدى المجلات الأميركية وقد تكون (التايم)، وكان مجمله:

إن احتلال العراق من قبل القوات الأميركية عمل كبير يشبه إلى حد كبير رمي حجر كبير وثقيل الوزن في بحيرة آسنةٍ، سينتج عنه أمواج دائرية تصل إلى شواطىء هذه البحيرة. فإذا نجحت الولايات المتحدة في التنفيذ والتخطيط تكون هذه خطوة مهمة في بقاء الولايات المتحدة الدولة الأعظم في العالم في هذا القرن (أي الواحد والعشرين). وإذا فشلت فستصبح مجرد إحدى القوى العظمى في العالم! فهمي لهذا التعليق أن الولايات المتحدة إذا نجحت في جعل العراق بعد الاحتلال دولة مستقرة غنية وديموقراطية ومنسجمة مع السياسة الغربية فتكون عند ذلك مؤهلة لأن تصبح الدولة النموذجية التي يحتذى بها في هذه المنطقة الاستراتيجية الحساسة، والتي تملك ثلثي الخزين النفطي العالمي وتعتبر الشريان الرقبي للاقتصاد العالمي!

ومما يدعم صواب تحليل كيسنجر في هذا الصدد، هو بناء الولايات المتحدة الأميركية أكبر سفارة لها في العالم أجمع، في بغداد بعد احتلال العراق.

أثناء وجودي هناك، دعا فاضل تويج الدكتور غسان العطية السياسي المعروف ورئيس تحرير الملف العراقي الذي يصدر شهريًا في لندن، والذي تربطني به معرفة قديمة، وكنت طبيبًا لأطفاله عندما كان يسكن حي المنصور في بغداد. سألني غسان: ماذا تتوقع وأنت مطلع على الوضع السياسي ومقيم دائم في العراق؟ أي الحركات

السياسية لها حظ أوفر في السيطرة على الشارع السياسي في العراق بعد سقوط النظام؟ أجبته على الفور: إذا استثنينا المنطقة الكردية، هي الأحزاب والتكتلات الدينية المطعمة بالطائفية! استغرب الدكتور العطية جوابي هذا. ولم نستمر في بحث هذا الموضوع الجدي، لأن الجلسة كانت عائلية والتطرق إلى التفاصيل يتطلب جلسة عمل طويلة لا جلسة عشاء سريعة.

رجعت إلى العراق. وبعد أشهر قليلة جدًا، نزلت القوات الأميركية والمتحالفة معها واحتلت العراق بسهولة وبخسارة بشرية طفيفة ووقت قياسي لبلد كبير وعريق. الملاحظ أن الولايات المتحدة لم تطلب ولم تسمح أيضًا بتدخل قوات المعارضة في الحرب الدائرة لتحرير العراق، سواء أكانت قوات بدر في الجنوب، أم قوات البشمركة في الشمال. وبسرعة أعلنت الولايات المتحدة احتلال العراق بموافقة مجلس الأمن الدولي. وهكذا أصبحت مسؤولة عنه داخليًا ودوليًا في سنة 2003. سوف لن أخوض في التفاصيل لأن هناك كثيرًا من المحللين والخبراء المحايدين شاهدوا هذه الحرب وما بعد الحرب، وهم أجدر مني في وصف تفاصيل أحداثها.

المهم أننا هربنا أثناء الحرب الأخيرة الثالثة (بعضهم يسميها حرب إسقاط النظام والآخر يسميها حرب تحرير العراق) باعتبار أن الحرب الإيرانية العراقية كانت الأولى، والحرب الكويتية العراقية الثانية وهذه ستكون الثالثة خلال ما يقارب جيلًا واحدًا. رجعنا بعد أسبوع من انتهاء

الحرب المؤلمة بعد أن شاهدنا تفاصيلها عن طريق الفضائيات الغربية والعربية عندما كنا هاربين في مدينة عمان عاصمة الأردن.

أمل الناس في العراق الكثير بعد سقوط نظام صانع الحروب، وكان القسم الأعظم من الشعب واثقًا بأن الدول التي خططت بدقة ونجاح تفاصيل الحرب السريعة لاحتلال العراق، بإمكانها أن تخطط أيضًا بالدقة والسرعة نفسيهما لإعمار العراق وتثبيت الأسس المتينة لبنيته الدستورية، لكي تكون قاعدة أمينة لحكم عراق عادل وديموقراطي. الواقع أن الأحداث سارت بعد سنة من سقوط النظام باتجاه غير متوقع، لأن التخطيط الأميركي لفترة ما بعد صدام كان فاشلًا وغير عملي كما أن القيادات العراقية التي دخلت العراق مع القوات الأميركية والحليفة كانت منقسمة على نفسها وغير مؤهلة لحكم العراق. والدول المجاورة سعت وبقوة لتخريب هذه التجربة الديمواقراطية وهي في المهد. كما استغلت القاعدة الإرهابية الدولية الموقف ودخلت الساحة العراقية بقوة بحجة وجود القوات الأجنبية، وأخذت ترهب الناس البسطاء المساكين وتخرب ما تبقى من بنية العراق التحتية المخربة. كما دخلت قوى وعناصر غريبة ومتنوعة لتثير الطائفية وإشعال نار الحرب الأهلية الخطرة والقذرة!

أثناء تلك الفترة درسنا كل الخيارات المتاحة مع أفراد عائلتي وقررنا أخيرًا الإقامة في كندا إلى أن تستتب الأمور في العراق، وكان جدولنا الزمني لمغادرة العراق هو بداية صيف 2005، حيث تُنهي في هذا التاريخ حفيدتي «ميس» امتحانها النهائي للمرحلة الابتدائية. ولكن حدث أمر مزعج ومرعب جعلنا نقدم تاريخ السفر ونترك العراق في الربيع بداية شهر نيسان، وذلك بسبب إلحاح زوجتي بعد حدوث الانفجار الإرهابي الذي كان يستهدف مقر المجلس الأعلى في الجادرية المجاور لنا، والذي لا يبعد أكثر من 50 مترًا عن دارنا. وكنتيجة لهذا الانفجار تحطم جميع زجاج المنزل ومعظم أثاثه، كما خُلعت الأُطر الخشبية والألمنيومية عن الشبابيك واقتلع الباب الرئيسي لها. كما صاحب الانفجار إعصار شديد أدى إلى سقوط زوجتي على الأرض مغشيًا عليها وكانت مصابة بجروح في الوجه والرقبة.

كانت إقامتنا في كندا في مدينة أوتاوا، وهي العاصمة الفدرالية لكندا وتقع على نهر أوتاوا، سكانها لا يتجاوزون المليون نسمة، وهي تؤوي مئات العوائل العراقية التي

فُرضت عليها الهجرة منذ عهد النظام السابق إلى هذا التاريخ لأسباب مختلفة، منهم الشيوعيون القدماء ومنهم من طلب اللجوء السياسي والإنساني لأسباب مختلفة وبعضهم طلب الهجرة بصورة قانونية وحسب متطلبات دائرة الهجرة الكندية الرسمية التي عادة تفضل الأشخاص الذين لهم صلة قربى من الدرجة الأولى بمواطنين يحملون الجنسية الكندية.

كندا دولة غنية وهي واحدة من مجموعة الدول الثماني الأغنى في العالم، التي تتبع التجارة الحرة في معاملاتها التجارية والنقدية، وتنتهج في الوقت نفسه الديموقراطية وتمارس حقوق الإنسان. وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأميركية، اليابان، ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، كندا. وقد انضمت إليها روسيا أخيرًا.

يعتمد اقتصادها على الصناعة الثقيلة والخفيفة، وكذلك على الموارد الطبيعية الكثيرة والمتنوعة كالنفط والغاز والذهب واليورانيوم والنحاس والأخشاب وغيرها.

شتاؤها بارد وطويل وأحيانًا مزعج رغم توافر جميع وسائل التدفئة الحديثة. الغريب أن هذا الشتاء (2009 ـ 2010) كان معتدلًا وقصير الأمد وسقوط الثلج كان شحيحًا (طبعًا ما يلحكك شتاء بغداد المشمس).

احترام حقوق الإنسان تلتزم به الدولة بدرجة عالية جدًا، وكذلك الحرية الفردية وتقرير المصير للأقليات

مضمونان دستوريًا، وقد تعدت حقوق الإنسان لتشمل الحيوان أيضًا. فإذا شوهد شخص وهو يضرب كلبًا أو أي حيوان أليف آخر يعاقب بموجب القانون إذا لم يعط سببًا معقولًا أمام القاضي لتبرير ذلك التصرف.

الحكم فيدرالي اتحادي والمحافظات المنتخبة محليًا تمارس صلاحيات واسعة كما هو الحال في الولايات المتحدة الأميركية تقريبًا.

الحكومة الفيدرالية في أوتاوا تحتفظ بإدارة شؤون الدفاع والسياسة الخارجية كما لها سيطرة غير مباشرة على الموارد الطبيعية الرئيسة كالنفط الموجود في محافظة (البرتا)، كما أنها تجني الضرائب الفدرالية من جميع المحافظات لتعزيز قدرتها النقدية، لأن من واجبها أيضًا القيام بضخ الأموال المناسبة لمساعدة المحافظات القليلة الموارد، كما أنها تتصرف كذلك عند حدوث أزمات وطوارىء في أي محافظة داخل القطر الكندي الشاسع.

محافظة كويبك الفرنسية الفدرالية الواسعة والكائنة في الشمال الشرقي من البلاد وأكبر مدنها مدينة «مونتريال» المشهورة وتبعد ساعتين بالسيارة عن العاصمة أوتاوا. يعيش في هذه المحافظة حوالى خمس سكان كندا وحوالى 90% من سكانها يتكلمون اللغة الفرنسية، والأغلبية الساحقة من أصول فرنسية أيضًا. في الماضي حاول قسم كبير من سكانها وبالأخص المحافظون والمتعصبون لفرنسيتهم

الانفصال عن باقي كندا بطريقة دستورية معتمدين على مبدأ تقرير المصير. ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل لأن التصويت لم يحظ بموافقة أغلبية سكان المحافظة. وفي بداية هذا القرن تقريبًا، أيقنت الأغلبية الساحقة من سكان كويبك أن مستواهم الاقتصادي سيتردى بهذا الانفصال لأن أكثر الثروات وخاصة المعدنية موجودة خارج محافظتهم، بالاضافة إلى أنهم يتمتعون ويحققون كل المتطلبات للمحافظة على تراثهم ولغتهم الفرنسية التي يعتزون بها. أما موقف الولايات المتحدة الأميركية الجارة المتنفذة من هذا الأمر، فهو عدم التدخل في هذا الشأن، ولكنها غير ميالة لمبدأ الانفصال.

زيارة قصيرة إلى بغداد

بعد سنة واحدة من إقامتي في كندا سنحت لي الفرصة لزيارة العراق في ربيع 2006، لقد لفت نظري التبدل السريع الذي طرأ على الخريطة السياسية والعلاقات الاجتماعية خلال هذه المدة القصيرة التي قضيتها في كندا. كان اتجاه مسيرة هذا التبدل مع الأسف نحو الأسوأ، وهذا التبدل السريع انعكس سلبيًا على نبض الشارع السياسي العراقي الذي كان مضطربًا أصلًا.

الحاجة لإصلاح الوضع ستكون عسيرة والمدة طويلة تستوجب تعاون وانسجام حكمة المحتل الأجنبي وحنكة السياسيين العراقيين الموجودين على الساحة السياسية، بالاضافة إلى وعي جماهير الشارع العراقي لخلق قوى بإمكانها تجاوز هذه المحنة الثقيلة التي يتخبط فيها الشعب العراقي منذ سقوط النظام.

لاحظت أن (المقاومة) ضد نظام الحكم الجديد المنتخب، أخذت منحىً جديدًا فبينما كانت في السابق متركزة في المناطق الغربية من البلاد وضد القوات الأميركية والمتحالفة معها، بدأت في الآونة الأخيرة تتوسع

لتشمل العاصمة بغداد مستهدفة القوات المسلحة العراقية ومراكز التجنيد لهذه القوات بصورة خاصة. كما أن القائمين بهذه العمليات لا يعلنون أسماء أو هويات الأحزاب والكتل التي ينتمون إليها لأنهم أخذوا أيضًا يستهدفون بصورة متكررة المدنيين العُزل بمن فيهم النساء والأطفال الأبرياء، كما توسعت بصورة واضحة عمليات الاختطاف للأطباء والأساتذة والشخصيات المرموقة في المجتمع. فالعملية تستهدف الحكم الديمواقراطي والمجتمع المدني بإثارة النعرة الطائفية البغيضة بصورة مكشوفة وواضحة كالقتل على الهوية الطائفية، واستهداف المراقد الدينية المقدسة، وكذلك كان ضمن الاستراتيجية الجديدة لهذه الفئات الإرهابية تدمير البنية التحتية وتخريب الاقتصاد الوطني تمامًا.

بقيت في العراق أسبوعين شاهدت خلالهما من تبقى لي من معارف وأصدقاء وأقارب، وأكملت بعض المعاملات الرسمية والأمور المتعلقة الأخرى، كما وزعت ما في مكتبتي من كتب على الأصدقاء والأحباء. حاولنا مغادرة بغداد عن طريق مطار بغداد الدولي.. ومن الطبيعي كان هناك إجراءات أمنية صارمة وتفتيش متكرر للأشخاص المسافرين وأمتعتهم، وبينما كنت أنتظر في القاعة الخارجية وإذا بشخص ينحني ليقبلني قائلًا:

دكتور هله بيك! إني المقدم علي المسؤول الأمني عن

المطار وأنت الذي أنقذت ولدي عندما أدخلته مستشفى الطفل العربي مصابًا بالجفاف. أنت عمرك قضيته في خدمتنا! خلي الآن نخدمك!

حمل بنفسه حقائبنا واجتاز المسؤولين عن نقاط الأمن ومكاتب الخطوط الجوية متوجهًا إلى المسؤول عن تفتيش الأمتعة الذي تعرف عليَّ وكان اسمه مهدي (أبو عمر) وقال بفرح وحماسة: لو أعرف أنك قادم إلى المطار لاصطحبت معي ابني عمر وهو الآن رجل تفتخر به! تدافع علي مع أبو عمر لدفع ضريبة المطار عني وعن زوجتي قبل أن ندخل قاعة الاستراحة المريحة داخل المطار.

هذه مشاهد غير قابلة للتثمين وتجعل الإنسان لا يأسف أبدًا على الخدمات الإنسانية التي قدّمتها إلى هؤلاء الناس الطيبين.

عندما غادرت المطار ألقيت نظرة أخيرة من الجو على بغداد الشامخة، وكانت تبدو لي حزينة، وقلت لنفسي كي أعزز الثقة بها:

إن بغداد خربها البرابرة المغول ولكن لم يتمكنوا من مسحها من الخريطة، ولن يطول أمد دحر الإرهابيين القُساة الذين يسعون إلى تهديمها ثانية. إنها ستظل أبدًا شامخة لأن محبيها والمرتوين من مائها العذب لن يتركوها لهؤلاء المتوحشين ولن يستبدلوها! إنها ستظل باقية إلى الأبد في قلوبهم وعقولهم!!

المستوى الطبي في العراق

إن زخم الذكريات والعواطف أنساني أن أعلق ولو باختصار على هذا الموضوع الحيوي الذي هو من صلب اختصاصي وخبرتي.

يعتمد المستوى الصحي في العراق كما هو الحال في جميع بلدان العالم بصورة رئيسية على عوامل كثيرة أهمها المستوى الثقافي والمعيشي للفرد واهتمام ومقدرة الدولة على تمويل واستمرار هذا القطاع الحيوي في المجتمع. كما أن هناك عاملًا آخر مهمًا يلعب دوره في هذا الشأن، هو مستوى التعليم الصحي. سأترك جانبًا العامل الثقافي والاقتصادي لأن هناك الكثير من الخبراء المختصين بإمكانهم بحث ومناقشة هذه المواضيع الواسعة والأساسية.

دور الدولة مهم جدًا في رفع المستوى الصحي في الدول المتنامية أكثر منه في الدول النامية لأن الأخيرة تعتمد على تعاون ومشاركة القطاع الحكومي أو الفدرالي مع مؤسسات القطاع الخاص من تخطيط وإنشاء المستشفيات والجامعات والمعاهد الصحية، بينما في الدول المتنامية كالعراق مثلاً يكون الأمر محصورًا باهتمام الدولة وتمويلها.

إبان فترة الحكم من سنة 1920 الى سنة 1940 كانت الدولة ضعيفة وحديثة التكوين، كما أن ميزانيتها محدودة في المجالات كافة. لذلك كان التطور في المجال الصحي والثقافي والاقتصادي يحبو رويدًا رويدًا ولكن إلى الأمام، وفي العهد الملكي المتأخر (1940 - 1958) كان التطور أسرع وخصوصًا في التعليم الطبي الذي كان مرتفعًا جدًا ومتقدمًا على معظم الدول المجاورة في منطقة الشرق الأوسط في هذا المضمار.

بعد إطاحة ثورة 14 تموز النظام الملكي سنة 1958، بقي التطور الصحي في العراق يحتفظ بتقدم ملحوظ ولكن أبطأ من السابق. وبعد سقوط نظام عبد الكريم قاسم في سنة 1963، استمر التطور تدريجًا في جميع المجالات الصحية والثقافية والاقتصادية. رغم عدم اهتمام الدولة بالقطاع الصحي، شاهدنا في السبعينيات طفرة نوعية من هذا الجانب بسبب ازدياد الموارد النفطية بصورة كبيرة في تلك الفترة حيث شيدت خلالها مستشفيات ومؤسسات طبية حديثة سواء في بغداد أو في المحافظات. كما ارتفع المستوى المعيشي والثقافي والاجتماعي للفرد العراقي، ولكن الخبراء في الاقتصاد يرون أن التطور الذي ذكرت آنفًا في القطاع الصحي لا يتناسب مع الزيادة الهائلة التي حصلت في ميزانية الدولة من جراء الارتفاع الهائل في أسعار النفط المصدر من العراق وخصوصًا بعد تأميم الثروة

النفطية سنة 1972، وارتفاع أسعار النفط العالمية بصورة جنونية بعد حرب تشرين مع إسرائيل سنة 1973.

فمثلًا، في عهد حكم عبد الكريم قاسم كانت الميزانية لا تتجاوز المائة مليون دينار (حوالى 330 مليون دولار) ولكن في منتصف السبعينيات، وعلى الخصوص بعد إعلان الثورة الإيرانية سنة 1979، ارتفعت الواردات النفطية في العراق بصورة هائلة يمكن تقديرها بحوالى عشرين ضعفًا مما كانت عليها الواردات المذكورة في الستينيات، بينما تمويل الخدمات الصحية في القطر لم يرتفع أكثر من ثلاثة أو أربعة أضعاف! طبعًا هذا التحليل معقول ومقبول لأن الحكومة كان من أولوياتها تمويل القطاع العسكري والأمني وذلك بزيارة حجم هذه القوات ورفع كفاءاتها القتالية والأمنية على حساب تمويل القطاعات المهمة الأخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كانت الحكومة تكدس الأموال الطائلة في المصارف الأجنبية فعندما نشبت الحرب العراقية الايرانية، ذكرت الصحف البريطانية أن العراق يُخزن ما يقارب أربعين مليار دولار بالإضافة إلى رصيده من الذهب. هذه الحقائق هي مؤشرات واضحة بأن الحرب كان مخططًا لها سلفًا وسيطرة رجال الدين على الحكم في إيران كانت ساعة الصفر تقريبًا لإشعال هذه الحرب. البكر وهو الأب القائد لحزب البعث والعسكري المخضرم الأول في قيادته لم يوافق على الحرب ولم يباركها لأنه يعلم ومتيقن أن

الحرب مدمرة للشعبين وتنتهي بلا غالب ولا مغلوب، لذلك تنحى أو نُحّي عن السلطة في تلك الفترة بالذات.

لم تكتف السلطة بعدم الاهتمام بالتعليم الطبي والخدمات الصحية بصورة عامة، بل أصدرت قرارًا رئاسيًا غريبًا وعجيبًا في الوقت نفسه في تاريخ 29-11-1979 ومواكبًا تقريبًا لتنحي الرئيس البكر عن السلطة، وهو المعروف باهتمامه بالقطاع الصحي، يقضي بالتقاعد القسري لـ 48 طبيبًا اختصاصيًا وأستاذًا جامعيًا أغلبهم كانوا في مدينة الطب، وهم لم يبلغوا بعد السن القانوني للتقاعد وكانوا أيضًا في قمة إنتاجهم وعطائهم العلمي والمهني.

على ذكر الخدمات الطبية أثناء الحرب مع إيران، افتخر أحد وزراء الصحة (لا أحب ذكر اسمه) أمام ما يسمى بمجلس الشعب بأن وزارة الصحة لم تستعمل كل ميزانيتها المخصصة لها لتلك السنة، وذلك تطبيقًا للشعار السائد في تلك الفترة «كل شيء من أجل المعركة».

أما عن الانهيار في المستوى الصحي بعد غزو الكويت وأثناء الحصار الطويل المفروض على شعب العراق المسكين، فكان شاملًا وقاسيًا وطويلًا وخصوصًا في التعليم الطبي والخدمات الصحية الأساسية الأخرى!

الخاتمة

لم تنته قصة حياتي بعد، لأنني قد أعيش أيامًا أو شهورًا وحتى سنين أخرى، وقد أكتب ملحقًا لهذه القصة، لكن الواقع أن حياتي النشطة المتفاعلة مع المجتمع أخذت تخبو ولا تتحمل المزيد من الجهد الجسمي أو الفكري، ورغم ذلك ما زالت مشاعر العاطفة والحب تنبض بقوة غير آبهة لجسمي الهرم وفكري المتعب.

عشت وعملت الخير لعائلتي وأصدقائي وبلدي قدر الإمكان، ولا أدعي الكمال والمثالية كما كنت أشاهدهما عند بعض الأفراد الذين أحسدهم عليهما، وأحاول أحيانًا تقليدهم وأفشل في ذلك، لأنني لا أملك القدر الكافي من الشجاعة والتضحية اللتين يملكونهما!

لقد تطور الطب كثيرًا في القرن الماضي، ويتقدم أسرع في القرن الحالي ولكنه بقي عاجزًا عن إيجاد علاج ناجع لمرض الشيخوخة عند الإنسان. شعرت عندما تجاوزت السبعين من عمري، بأنني أعيش في الوقت الضائع من حياتي (كما تسمى هذه الفترة في لعبة كرة القدم). لذلك حاولت أن أتمتع وأسعد نفسي وأحبائي بكل

شيء ممكن ومعقول. ولكن بعد أن اجتزت الثمانين، توجهت كل أنظاري وأفكاري إلى الماضي فقط متناسيًا ما يحمله المستقبل القريب أو البعيد والمثل الشعبي يقول(ماكو بعد العمر اليسوه!)

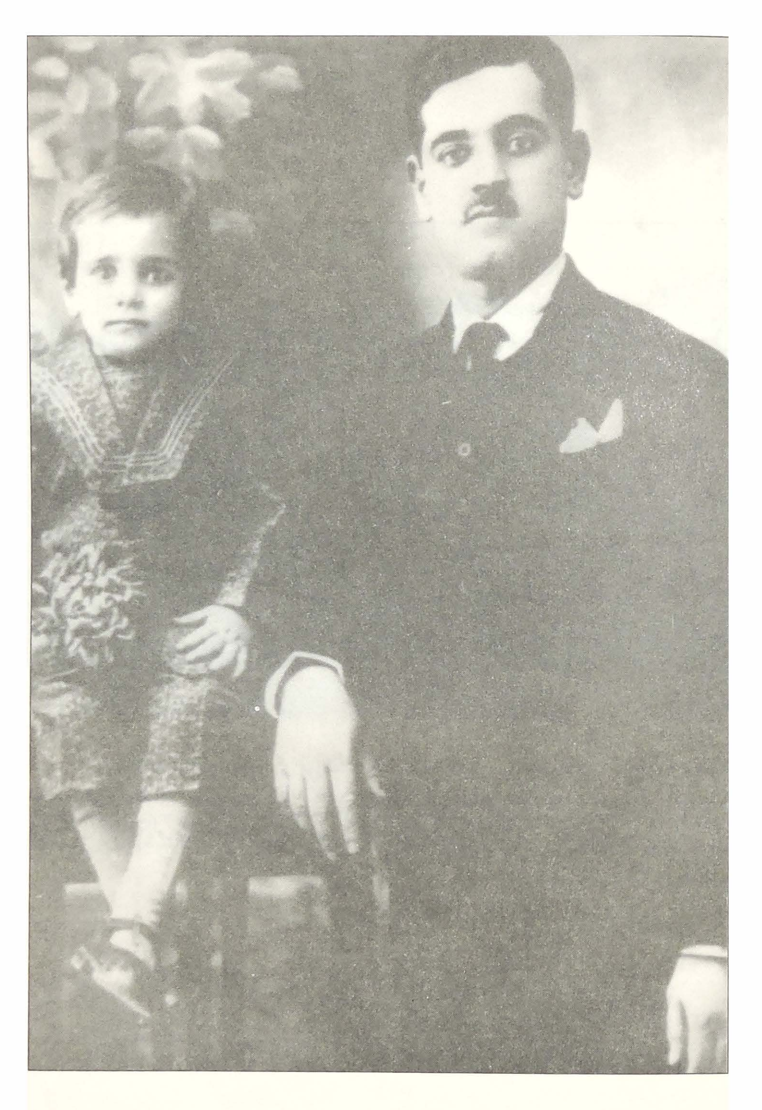
انتهت قصتي بينما قصة العراق لا تنتهي، ومسرحه سيظل قبلة أنظار المشاهدين ليس في الشرق الأوسط فقط، بل في كل أنحاء العالم.

هناك بعض الملاحظات حول العراق الحبيب أحب أن أذكرها باختصار شديد وصراحة تامة، لأن الناس سئموا سماع الخطب الرنانة وقراءة الكتب المنمّقة وما يشاهدون على شاشات التلفاز من الأخبار الملفّقة.

أودُّ عدم تسييس الدين لكي يبقى نقيًا طاهرًا ومحترمًا لأن السياسة تتطلب المبالغة والنفاق واللّف والدوران، كما أن السلطة عادة تستقطب المنافقين والانتهازيين وطلاّب المناصب والمنافع.

يجب الابتعاد عن الفُرقة وعدم التأثر بالطائفية والعرقية ومحاولة التكتل مع الفرق والكتل الأقل تطرفًا سياسيًا، لأن السياسة هي (فن الممكن) وليس بالضرورة الأحسن. نبذ العنف كليًا ومقاطعته لأنه سيجر المجتمع إلى العنف المضاد والكراهية والصدام الذي يؤدي إلى تفكك المجتمع وتأخير عجلة التقدم والرفاه لهذا الشعب المسكين الذي عانى ما فيه الكفاية.

الديمقراطية في المركز والسلطات المنتخبة في المحافظات العراقية، تعتبر المكسب الهائل الوحيد الذي حصل عليه الشعب العراقي، بعد أن انتقل من فترة الدكتاتورية الفردية المظلمة إلى الديمقراطية والحرية. سيكون الطريق طويلًا وشاقًا وباهظ الثمن ولكنه سيكون نقطة تحول هامة ومضيئة للعراق والمنطقة بصورة عامة! إن هذا ليس بالغريب على تاريخ العراق، فالسومريون هم أول من شكّل برلمانًا مثّله مجلس عموم وأعيان، ووضعوا أول دستور عرفته البشرية يُسمّى «بشريعة أورنمو» ويعود تاريخه إلى 2700 سنة قبل الميلاد.



صورة فريدة مع الوالد سنة ١٩٢٩ .



صورة فريدة التقطت لقارب بخاري في نهر دجلة سنة ١٩٣٨ . يشاهد جدي الحاج مجيد مكية يجلس في وسط القارب وظهره إلى الكاميرا ويجلس في صدارة القارب المدعوون من أصدقائه وهم من اليمين إلى اليسار حامد الوادي، سعيد التكريتي والملا عبود الكرخي .



صورة ثانية للمجموعة نفسها وأظهر أنا في الصورة جالساً قبالة جدي إلى يسار المركب ويظهر العم أبو طارق واقفاً في الجهة اليمنى كما هناك الدكتور عبدالعزيز صالح مكية ورشيد فتة وخزعل مكية وشاكر الگنبر.



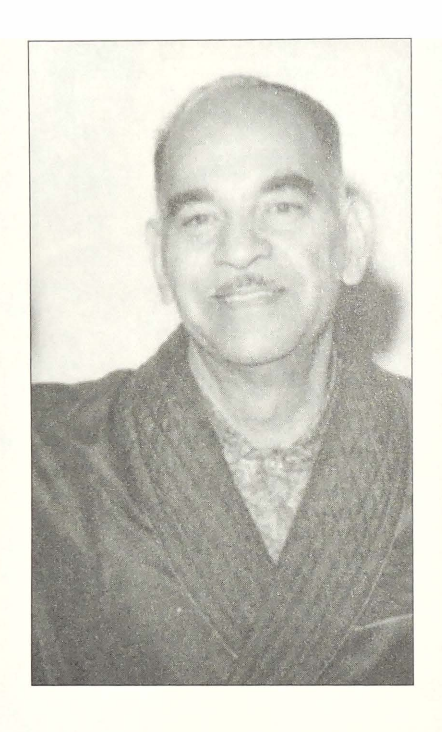
الوالدة إلى اليمين (في منتصف الخمسينيات) حاملة حفيدتها رحاب وتجلس بجوارها والدة الدكتور صادق الهلالي وتقف خلفها من الجهة اليسرى الأخت نجية وعلى يمينها تقف الأخت مليحة حفيداها عادل وسوسن.



صورة للصف السادس الابتدائي (مدرسة المنصور الابتدائية) سنة ١٩٣٩ . المدير عبدالجبار شريدة الجالس الثالث إلى اليمين وأنا واقف على يمينه من الخلف



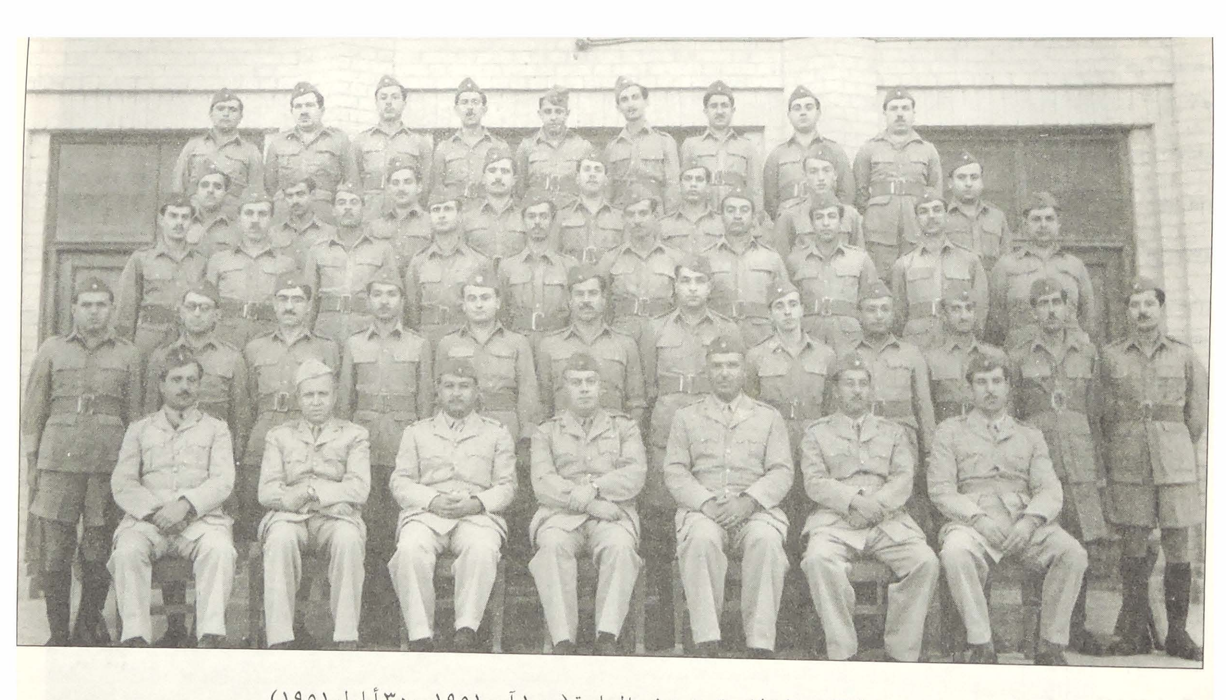
ابن العم الدكتور عبدالعزيز صالح مكية مع زوجته الاخت فخرية في أواخر الستينيات .



صورة للعم أبو طارق في منزله بالصالحية في مطلع الأربعينيات .



صورة للعم ناصر مكية بملابسه العسكرية سنة ١٩٣٨ .



دورة ضباط الاحتياط الخامسة عشرة غير المسلحة (من ١ آب ١٩٥١ - ٣٠ أيلول ١٩٥١)

من اليمين إلى اليسار :

الصف الأول :

الرئيس عبد المجيد السامرائي ، **الرئيس الأول أحمد حسن البكر** ، الرئيس الأول عسكر محمود ، العقيد الركن علاء الدين محمود ، المقدم الركن محيي الدين عبدالحميد ، الرئيس حسن مصطفى ، الرئيس فوزي جميل .

الصف الثاني :

رشيد كاظم بهية ، فاتح عمر ، باقر رضا الموسوي ، عبدالمجيد عبدالعزيز السالم ، **مهدي حسن مكية** ، عبدالقادر الطالباني ، حسني عبدالباقي الألوسي ، غانم يعقوب عسكر ، سعدي ابراهيم الحسن ، فاضل زيا يوسف ، سامي جميل رسام ، سالم قاسم الدباغ .

الصف الثالث :

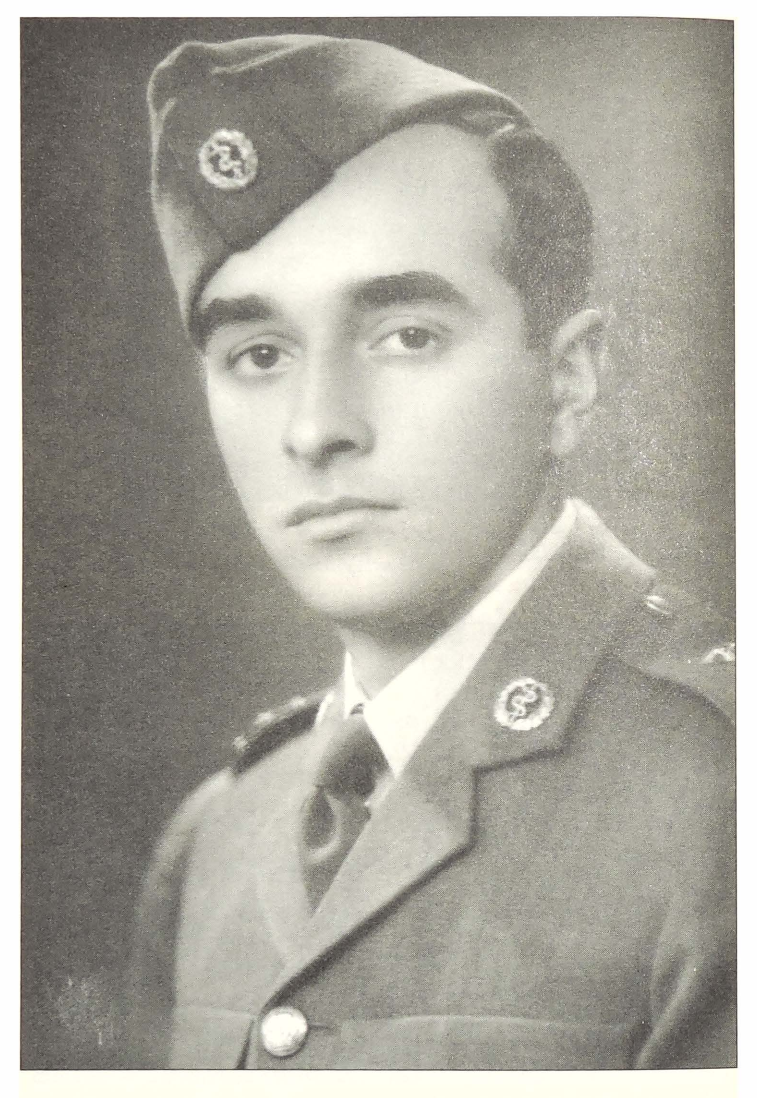
خالد يوسف غنيمة ، جمال البلداوي ، شاكر عبدالله القطيفي ، ضياء نوري خندة ، مصطفى أحمد الخضار ، صلاح العسكري ، ماهر شكري ، حامد حمدي الموصلي ، نوري يوسف مهدي ، بهنام نجيب قندلا .

الصف الرابع :

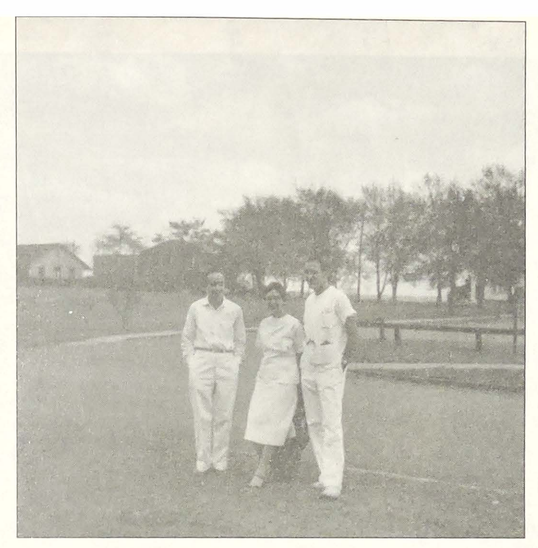
فائق علي عيسى ، عماد الدملوجي ، عبدالله فوزي ، علي حسين النقيب ، مهدي السماك ، جلبرت فرج عبدالرحيم ، غانم قسطو ، عبدالخالق صالح عكرة .

الصف الخامس :

عبد الأمير الازري ، هاكوب هاكوبيان ، عبدالقادر عبدالله شالي ، حسام الدين توفيق ، عبدالرزاق جواد ، نشأت لبيب الخضيري ، عبدالصاحب هاشم ، مؤيد مصطفى العمري ، **عزت مصطفى** .



صورة بملابسي العسكرية برتبة نقيب طبيب (احتياط) في الجيش العراقي سنة ١٩٥١ .



التقطت هذه الصورة سنة ١٩٥٥ مع زميل لي أميركي وطبيبة متدربة في حدائق مستشفى بلتيمور في أميركا .



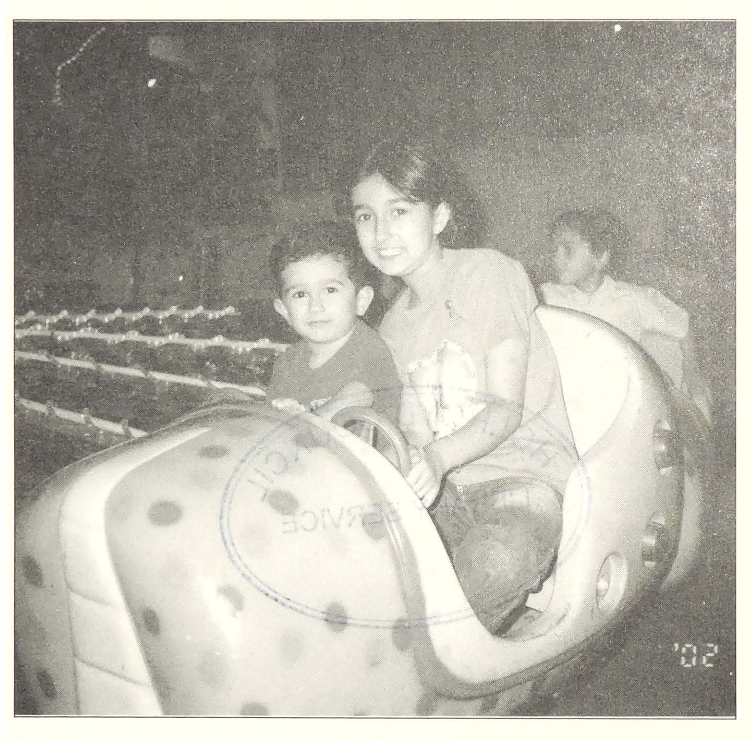
مع الأخ وصديق العمر الدكتور محمد جابر محسن عندما زرته سنة ١٩٥٦ في مدينة كولومبس (أوهايو) الاميركية .



جلسة عائلية سنة ١٩٧٠ مع الدكتور محمد مكية إلى اليمين وأنا على يساره وتتوسط الجلسة زوجتي وتجلس الدكتورة فوزية مكية إلى يسار محمد.



التقطت في سنة ٢٠٠٠ في إحدى الجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط .
سلمى عن يميني وياسمين عن يساري مع زوجتي ماريا .



الحفيدان «ميس» و «علي» يمرحان في مدينة الألعاب في جزيرة «رودس» اليونانية سنة ٢٠٠٢.

يكشف د. مهدي مكيّة في كتابه هذا خفايا وأسرار ما كان ليرفع عنها الستار، لولا مواكبته الطويلة لمرحلة من أكثر المراحل التي مر بها العراق في تاريخه الحديث إثارة وإلتباساً وخطورة، لكونها كانت حافلة بالتحولات والتطورات والصراعات.

والأهمية التي تكتسبها «قصة حياة» د. مكيّة هو كونه شاهد عيان لأهم الأحداث الفاصلة في حياة العراق.

ومن تلك الأحداث التي يرويها من موقعه القريب ومما شاهده بأم عينه أو اطلع عليه اطلاع العارف والشاهد حادثة اغتيال الزعيم عبدالكريم قاسم، ومقابلته لصدام حسين وتحليله العميق لشخصيته. ومعرفته بالاسباب الحقيقية التي كانت وراء اعدام وزير الصحة العراقي في عهد صدام حسين الدكتور رياض ابراهيم وهي معلومات يكشف عنها النقاب وتنشر للمرة الأولى.

كما انه يروي كيفيّة إنشاء الجمعية التأسيسية لجامعة الكوفة.

وباختصار، ان اسلوب د. مهدي مكيّة السلس والمشوّق يحفز القارئ على قراءة هذا الكتاب برغبة التطلع الى كشف الحقيقة وسبر أغوار بعض الأسرار التي كانت طي الكتمان.


ISBN 978-614-404-183-3